

الدكتور محمود توفيق محمد سعد

نظريّة التناهي في القرآن

عند برهان الدين البقاعي (١٨٨٥ هـ)
متمهجا وتطبيقا

الطبعة الأولى

١٩٨٦ - ١٤٠٤ هـ

منظمة الأمانة
٣ شارع جنديرة بدران شبرا - معمر

Handwritten text at the top left of the page.

Handwritten mark or symbol at the top right of the page.

Handwritten text in the middle section of the page.

Handwritten text below the middle section.

Handwritten text in the lower middle section.

Handwritten text below the lower middle section.

Handwritten text in the bottom section of the page.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين • الرحمن الرحيم • مالك يوم الدين •
والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والمسلمين الذين
قل لهم مرشدا وهاديا : « خيركم من تعلم القرآن وعلمه » فكان ذلك
الدافع الفتى لخاصة أمته الى أن تهب وجودها كنه في هذه الحياة لتعلم
انقرآن الكريم ، وتدبره ، وتطبيقه ، وتعليمه •

من هؤلاء الخاصة رجل اتخذ الى تدبر البيان القرآنى المعجز منهاجا
بديعا وطريفا وقويما في الوقت ذاته ، حرص كثيرا على الالتزام به من
بعد غرسه وتقويمه وتركيتت : تطهيرا وانماء • انه الامام «برهان اندين
ابراهيم بن عمر البقاعى» (ت ٨٨٥ هـ) الذى قدم للمكتبة الاسلامية
الكثير الطيب ، غير أن جل ما قدمه في فنون العلوم الاسلامية ما يزال
مطمورا تحت كتبان النسيان أو الالهال ، والأوراق انقادمة من هذه
الدراسة تحاول جاهدة أن تزيح بعضا مما تراكم على نتاج هذا الامام
في رياض التدبر الجمالى لبيان القرآن الكريم ، وهذه المحاولة كانت
أمنية تضطرم في الفؤاد قديما ، وقد نساء الله تعالى أن تستحيل بحمده
تعالى الى حقيقة تسعى انى أن يكون لها مكان كريم في عالم العالم والعلماء •



موضوع الدراسة وهدفها :

ينحصر القول في هذه الدراسة في رؤية « البقاعى » الاعجاز
البيانى للقرآن الكريم ، والقول في هذه الرؤية يمكن تناوله من جوانب
عدة ، لا يستطيع باحث فرد أن ينهض لها وبها في دراسة واحدة ، وان
كان من كان ، فان هو سعى الى ذلك خسر وجوده كباحث ، فان المنبت
لا أرضا قطع ولا ظهرا ألقى •

لذا تحدد هذه الدراسة الجانب الذي نتناول منه رؤية « البقاعى »
 وجهده في تدبر الاعجاز البيانى للقرآن الكريم ، ذلك الجانب هو الكشف
 عن منهج « البقاعى » في تدبر البيان وتذوقه وتخطيطه لتحقيق هذا المنهج
 ثم ترجمته لعطاءات ذلك كله ، كما تستقر في عقله وقلبه أو تنقح أو
 تلتقمع فيهما .

ولا ريب في أن قراءة موروث الأجداد – ولا سيما في محيط تدبر القرآن
 الكريم وفهم السنة الشريفة – بحاجة جد شديدة الى كشف منهج
 أولئك الأئمة في بناء تراثهم ، وهذا الكشف هو من أدق وأصعب ما يعانیه
 الباحثون في التراث الاسلامى ، لأنه في حقيقته محاولة للتوغل في أدغال
 فكر أولئك الرادة الأئمة ، كيما نعرف كيف تنشأ الفكرة في ألبابهم ، ثم
 تتخلق ، ثم تكون بين أيدينا تراثا هو اليوم يشكل عقولنا وشخصيتنا
 الفكرية والثقافية .

هذا الاتجاه الذى نحدو اليه عيسنا عليها نبلغ الحمى أو تقترب هو
 الذى يعيد الى هذه الأمة دورها الرائد في مجال الفكر والثقافة والمعرفة
 العميقة والواسعة في الوقت ذاته .

★ ★ ★

منهج الدراسة : الأساس والبنية :

أولا : الأساس

الذاتية الرشيدة من أسس الموضوعية في كشف وتقويم الابداعات
 الفنية والفكرية على اختلاف انواعها وهو ما يعرف بالنسبية

الموضوعية (١) ، ذلك أن انذى لا يمكن أن يدفعه دافع هو أن « للقلب تعطيله الذى لا يعرف العمل عنه شيئاً » (٢)

هذه الذاتية الرشيدة تستمد قوامها الفنى الزكى من وفرة وتنوع الزاد الثقافى للناقد ، ومن فقهه وادراكه النافذ فى أعماق الدلالات ومن رهافة حسه الأدبى واستشفافه الذوقى ، وادراكه للملامح الجمال الدقيقة ثم من وثاقة الاعتلاق بالمبدع ، بحيث يتأتى له استكناه الحقائق والدقائق والرقائق من ثنايا بيانه . ذلك أمر قد أشار اليه الفاقهون (٣) . ان يكن ذلك فى نقد الأعمال الابداعية فى دنيا الكلمة الانسان ، فانه اسمى مكانة ، واجدى عطاء ، وأكرم نوالا فى آفاق الكلمة الالهية المعجزة من حيث هي ، ومن حيث ما يطوف حولها من دراسات ، ولعل فاعلية الاعتلاق الوثيق بين العبد وربّه أعظم أثرا وظهورا فى أى نتاج علمى يجاهد فى أن يقدم للأمة خيرا من فاعلية العلاقة بين الناقد والمبدع فى دنيا الكلمة الانسان .

انه على قدر اتصال الباحث الرشيد بربه عز وعلا يكون الفيض الأقدس والعطاء الأنفس ، ويكون الاقتدار على الاستقبال والتأثر والترجمة والايضاح ، وذلك أمر قد أبرز أصوله الأقدمون الفاقهون (٤)

(١) ينظر : النقد الفنى - جيروم ستولنيمتز ، ترجمة فؤاد زكريا ص ٦٣٣ .

(٢) ينظر كتاب : ادجار ألن بولمفسنت بوارنيللى ص ٤٧ ، والوساطة للجرحانى ص ٤١٢ ، وقواعد النقد الأدبى لكرومبى ص ٦ ، والأسس الجمالية لعز الدين اسماعيل ص ٦٧ ، ومنهج البحث فى الأدب واللغة للانسون ص ٤٠٢ (ضمن النقد المنهجي لندور) .

(٣) ينظر فى هذا : النقد الفنى لستولنيمتز / ٦٩٨ ، والتفوق الأدبى كيف يكون لآرنولد بنيت / ٢٦ ، وقضايا النقد الأدبى لزكى عسماوى / ٤٢٠ - ٤٢٣ ، ولئن الشعر لاحسان عباس / ٢٠٧ .

(٤) ينظر فى هذا : فهم القرآن للمحاسبي ص ٣٢١ - ٣٢٤ تحقيق

=

فأساس الذاتية – عندنا – في الدراسة الجمالية لبيان انقرآن الكريم انما يكون من معطيات وفيوضات الاعتلاق الوثيق بالسماء فيزداد العبد استغراقا في مقام العبودية الخالصة لربه – عز و علا • ثم من معطيات أمور وهبية وكسبية هي أساس كل دراسة جمالية للكلمة الانسان : شعرا أو نثرا ، غير أن فاعلية الاعتلاق بالسماء في دراسة الكلمة الالهية المعجزة تفوق فاعلية كل الادوات والوسائل الوهبية والكسبية •

من هنا كان أساس المنهج الذي نسعى الى الالتزام به في دراستنا هذه يتكون من تفاعل عناصر ثلاثة :

– محصول ثقافي بعيد الغور ، فسيح المدى ، متكاثر الروافد في صحبة استبصار عقلى واع •

– استشفاف ذوقى مرهف ، مدرك لملامح الجمال في الأشياء عامة وفي الكلمة الماتعة خاصة •

– سعى حثيث الى التخلق بأخلاق العبودية الخالصة لله تعالى وحده والتبرؤ من ملاحظة سطوات الجلال أو فيوضات الجمال لذاتهما، بل لما قاما به أزلا وسرمدًا •

تلك هي مكونات أساس هذا المنهج ، ولا ريب في أنها تنزع الى المثالية المتأبية عنى التحقق ان عاجلا أو آجلا لمثلئى • بيد أن ذلك مانصبوا اليه ، ونسعى حثيثا الى أن نحوز منه القدر الطيب ثقة بأنه « ما أقبل

حسين القوتلى والمفردات للراغب الاصفهاني / ٥ (ط سنة ١٣٨١ الحلبي)
والفوائد لابن القيم ص ٣١ (ط سنة ١٤٠٠ م) والمرافقات للشاطبي
٢٧٢/٣ / تحقيق محيي الدين والبرهان نى علوم القرآن للزركشى ١٥٤/٢
تحقيق أبى الفضل – بيروت •

عبد على الله جل وعز الا أقبل الله عليه وأسرع اليه الاجابة ، فكذلك اذا
أقبل على الله تعالى ، وذكره بطلب الفهم ، أسرع اليه بالافهام له ،
وكذلك ضمن للمقبلين اليه بعقولهم لفهم كلامه عنه ، فقال عز وجل :

« ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد »

[ق : ٣٧] (٥)

★ ★ ★

البنية :

ما مضى كان تبياناً لأساس المنهج الذي اتخذناه أما بنيته ، فتمثل
في ثلاثة أمور :

العرض والتحليل والتقويم ..

(أ) أما العرض ، فهو وان يكن وسيلة في الدراسات النقدية لنص
علمي أو أدبي الا أنه في دراسة نتاج « البقاعى » خاصة يكتسب قيمة
أساسية ، ذلك أن عطاءه في تدبره البيان القرآنى ما يزال مطمورا في
خزائن المخطوطات ، قليل من أطلع على شيء منه ، وأقل منه من فتس
فيه بأى منهج ، بل ان دراستى هذه هى أول دراسة تتناول جانب التدبر
الجمالى لبيان القرآن الكريم لدى « البقاعى » والذين سبق لهم أن
تناولوا شيئا من تفسيره ثم يقيم أحد منهم بتناول هذا الجانب بالتقويم
ولا بالتحليل ، أقول ذلك وأنا على وعى كامل بكل حرف أرقمه هنا حتى
لا يظن أنى متعافل عما حام حول الشيخ من دراسات •

من هنا فانى أسعى الى التقاط بعض ما دسه الشيخ عن عمد في

(٥) فهم القرآن للمحاسبى ص ٣١٢ (تحقيق حسين القوتلى) ط / ٢

سنة ١٣٩٨ - دار الكندى / بيروت •

ثنايا تفسيره المخطوط ذي المجلدات المتعددة ، فحق على هذه الدراسة أن تجعل انفاذ صوت الشيخ الى بعض عقول وقلوب المهومين بالدراسات القرآنية ولاسيما البيانية جزءا من بنية منهجها عسى أن يكون لذلك أثره الطيب .

★ ★ ★

(ب) أما التحليل ، « فالبقاعى » كتب تفسيره للقرآن الكريم بأسلوب عمد فيه الى الايجاز البالغ ، والاكتناز المוגل ، مما جعل كثيرا من المشتغلين بالبحث يتوهمون أنه خواء من الجنى ، ولاسيما ما يتعلق بالبيان ، وذلك يفرض على ابراز ما فى تفسيره للقرآن الكريم من عطاء بيانى على وجه أخص .

ولعلك تدرك قدر العناء فى تحقيق ذلك حين تقرأ تصريح البقاعى بأنه عمد فى تفسيره الى الايجاز، ولن يستطيع فهمه حق فهمه الا من تلقاه عليه كما يقول . (٦)

★ ★ ★

(ج) أما التقويم فهو يعتمد على أساسين : المعالجة والتقدير — المعالجة تبدو فى محاولتى تقويم بعض ما أبصرته من عوج فى التدبر أو ترجمة عطاء التدبر ، أو من نقص فى حواشيه متى أعان الله — تعانى — على ذلك .

— التقدير يبدو فى ابراز قيمة أفكاره : (نظرا وتطبيقا) وما له فى هذا وما عليه فى عدالة المسلم .

(٦) ينظر الأقوال القويمية للبقاعى ص ١٨٣ (مخطوط رقم ١٢٦٩ تفسير - دار الكتب المصرية) .

من هنا استطيع القول ان منهج هذه الدراسة هو منهج وصفي
 ناقد : نقدا تفسيريا وتقويميا .

ولست أزعم أنى قد حققت هذا المنهج تحقيقا كاملا ، ولكنى سعت
 الى ذلك ما استطعت ، فان يكن فضل فمته جل جلاله وحده . واذا
 ما كان غيره فانى له أهل .

★ ★ ★

خطة الدراسة

قسمت هذه الدراسة على مباحث أربعة مسبقة بمقدمة وتمهيد
 ومردفة بخاتمة ثم صحبتها لحق .

[المقدمة] هى التى بين يديك تعرض موضوع الدراسة ، وتحدد
 هدفها ، وتجلو منهجها وخطتها والسبيل الذى سلكت والأبواب التى
 اجتازت .

[التمهيد] درست فيه موقف البقاعى من أمرين :

الاول : علاقة اللفظ بالمعنى وما قدمه فى ذلك .

الآخر : مفهوم انتاسب القرآنى ، والأسس التى يركز عليها ،
 والميدان الذى يتحقق فيه أثره .

(١) [المبحث الأول] : جوانب تناسب عناصر الكلمة مع السياق
 والقصد ، وقد تناول خمسة جوانب جعلت كل جانب فصلا :

- الاول : تناسب الكلمة مع السياق والقصد من حيث مادتها .
- الثانى تناسب الكلمة مع السياق والقصد من حيث هيئتها .
- الثالث : تناسب الكلمة مع السياق والقصد من حيث ادائها .

- الرابع : تناسب الكلمة مع السياق والقصد من حيث رسمها
- الخامس : تناسب الكلمة مع السياق والقصد من حيث الخصائص الصوتية



(٢) [المبحث الثانى] : تناسب عناصر الآية والنجم للسياق والقصد .

درست فى هذا المبحث بعضا من الأساليب القرآنية ولم تشمل كل الأساليب التى تناولها الدرس البلاغى فيما عرف بعلم المعانى والبيان والبديع وانما انتقيت بعضا منها لتكون نموذجا لفهم وتدبير البقاعى لأساليب القرآن ، لانه ليس من اليسير على بحث فرد أن يستقصى كل الاساليب فبما يختص بالآية والنجم ، ولاسيما فى مثل هذا البحث الذى يهتم أيضا بجوانب أخرى كان من حق (البقاعى) عليه أن يقدمها للمبحث البلاغى ، ليلفت انتباهه واهتمامه بها وهى التى تأتى فى المبحث الثالث والرابع .

اما الاساليب التى قدمتها هنا فقد بدأت بالانتفات اشارة الى الانتفات من دراسة الكلمة فى ضوء السياق والقصد الى دراسة الجملة والآية والنجم فى ذلك الضوء أيضا ، وحاولت فيه ابراز اهتمام البقاعى بالاشارة الى سرائر الأساليب وعطاءاتها اكثر من اهتمامه بالتقسيم والنقاش والجدل ، وكذا ابراز ما يمكن للدرس البلاغى أن يستفيده من فهم البقاعى وتدبره فى هذا ، ثم تلوته بالقسم وخصصت القسم الالهى الذى يأتى فى أسلوب (لا أقسم) مع تبيان العلاقة بين المقسم به والمقسم عليه ، وكان تقديم القسم على ما بعده تجاوبا مع موقعه فى الكلام فله الصدارة ، وهو من أقوى مؤكدات الكلام ، فكان من حقه التقديم فى دراسته هنا ، ثم جاءت دراسة القصر من حيث أنه تأكيد على تأكيد ، غير أنه دون القسم درجة فى التأكيد ظهورا وجلاء .

ولما كان من طرق القصر تقديم بعض عناصر القول على بعض ، وكان عطاء التقديم غير مقصور على الدلالة على القصر كان من الحسن ارداف القصر بالتقديم والتأخير والترتيب ، ولما كنت أفرق بين التقديم والتأخير من جهة والترتيب بين العناصر من جهة أخرى كما سيأتى ، وكانت بعض صور الترتيب قد تكون مصحوبة بحرف عطف وكان من حروفه اعطف ما يفيد ترتيبيا ، وبعضها لا يفيد كالواو عمدت الى اردافه بدراسة عن العطف بالواو وتركه (الفصل والوصل) ، ولما كان أبرز عطاء الواو الدلالة على الجمع بين العناصر وتغايرها عمدت الى دراسة اسلوب يجمع بين عناصر متغايرة وينسجها على منهج سماه بعضهم الاحتباك فدرسته عند البقاعى مبينا اهتمامه بهذا الاسلوب حتى انه ليبدو لكل قارئ لتفسيره اهتمامه به وبتوضيحه على الرغم من عدم اهتمام المفسرين والبلاغيين به بل ان بعضهم أشار اليه كمحسن بديعى بمفهوم المتأخرين للمحسن البديعى •

ولما كان الاحتباك عنده قائما على النسج المنسق للعناصر أحببت أن أردفه بأسلوب لا يظهر فيه التنسيق للعين والعقل سريعا ، وهو أسلوب النثف والنشر المشوش خاصة ، لاهتمام البقاعى به على الرغم من حكم بعض البلاغيين عليه بأنه دون المرتب فاحببت ابراز موقف البقاعى منه وفهمه وتدبره ومدى صحة ماذهب اليه بعض البلاغيين من الحكم على هذا الاسلوب •

ثم درست بعد هذا أسلوبين من أساليب البيان هما التشبيه والاستعارة •• باعتبارهما أبرز أساليب البيان وأثراها عطاء ، وتركت دراسة المجاز المرسل والمجاز العقلى والكناية بعد أن اعددتها مضافة اثقال البحث وملايساته •

ثم كان ختم هذا المبحث بدراسة عن الفاصلة وموقف البقاعى من السجع ، ولا تخفى عليك علاقة هذا الاسلوب بموطنه فى المبحث وكأنى

أشير به الى انتهاء القول في هذا البحث الثانى ، وبهذا تجلى لك اعتلاق عناصر هذا البحث ببعضها .

★ ★ ★

(٣) [البحث الثالث] : (تناسب عناصر السورة القرآنية)
 فى هذا البحث عمدت الى دراسة الاعتلاق الوثيق بين كل عناصر السورة مجتمعة وتبيان المبدأ الموحد الجامع بينهما فى تأخ وتعانق وقد قسمته على فصلين :
 الاول : درست فيه الافكار النظرية للبقاعى فى هذه القضية وحالتها وقومتها وبينت أين هى من الدرس البلاغى والنقدى .

الآخر : درست فيه تطبيق البقاعى لهذه الافكار ، ولما كان من الجلى استحالة قيام بحث فرد بالتعليق على تطبيقه على كل سور القرآن الكريم كان من اللازم اختيار سورة من سور القرآن الكريم ، وقد كانت سورة النحل ، أما لم كانت سورة النحل بالذات ؟ فالحق الصراح ان ذلك الاختيار ليس لى فيه شىء ، فقد أجريت قرعة ، وهى من سنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فشاء الله تعالى أن تكون سورة النحل فطلبت العون والتوفيق ، ولعل فى هذا الاختيار فألاً حسناً ان شاء الله تعالى .

★ ★ ★

(٤) [البحث الرابع] : (تناسب ترتيب سور القرآن الكريم)
 يعمد هذا البحث الى ابراز اهتمام البقاعى بتدبر وتبيان تناسب القرآن الكريم من حيث ترتيب سوره على النحو الذى بين أيدينا ، وقد قضت طبيعة هذا البحث تقسيمه على ثلاثة فصول :
 (أ) الفصل الأول : (تناسب براءة الاستهلال مع المضمون والمقصود بين بعض السور) تناولت فيه تناسب بعض السور فى

براعة الاستهلال فيها ، وعلاقة استهلال كل بمضمونها ، وقد مثلت
لذلك بنموذجين :

الاول : سورتا النساء والحج •

والآخر : سورة الفاتحة والانعام والكهف وسبأ وفاطر •

حاولت ابراز تطبيق البقاعى لافكار ومطابقتها على عناصر السور
المدرسة وقيمة صنيعة هذا •

(ب) الفصل الثانى : (تناسب ترتيب السور المتتالية)

تناولت فيه تدبير وتبيان البقاعى لتناسب ترتيب السور على وفق
ترتيبها فى صدورنا ومصاحفنا واخترت تسع سور من اول القرآن
للمتابعة (الفاتحة - التوبة) وهو اختيار عن عمد تبجو اسبابه فى الفصل
التالى (الثالث) والبقاعى هنا اعتمد فى تدبره لتناسب ترتيب السور على
التناسب فى المقصود والروح المهيم دون اغفال للتناسب بين استهلال
السورة لخاتمة ما فيها بل وخاتمها تبياننا لفكرة انتهى اليها وهى فكرة
اندائرة المفرغة بحيث لا يكون للسورة اول ولا آخر •

(ج) الفصل الثالث : (رد مقطع القرآن على مطلعته)

تناولت فى هذا الفصل دراسة رد عجز القرآن على صدره كما
يسميه البلاغيون والبقاعى احيانا ، وهو قدم لنا ثلاثة مستويات من
تبيان ما انتهى اليه بعد طول تدبير :

(أ) المستوى الأول : رد تسع سور من آخر القرآن على تسع
سور من اوله على وفق ترتيب القرآن فى صدورنا ومصاحفنا ، ولذا كان
اختيارى فى الفصل السابق لدراسة التسع السور الأولى ، وهو بهذا
يحاول تفسير حديث الحال المرتحل كما سيأتى تبيانه •

هذا هو المقصود من هذا الفصل وهو محاولة لتبيان ما انتهى اليه بعد طول تدبير

(ب) المستوى الثانى : يرد سورتى الفلق والناس على سورة البقرة فقط بحيث تكون الفاتحة محيطة بالقرآن كله باعتبارها أم الكتاب.

(ج) المستوى الثالث : يرد سورة الفيل الى آخر سورة الاخلاص (قل هو الله أحد) على آيات الفاتحة وبعض آيات من أول البقرة حيث يقابل الآيه (٢١) « يا أيها الناس اعبدوا ربكم ٠٠٠٠ » بسورة الاخلاص ثم يجعل المعوذتين تحصينا لمن ارتقى من فاتحة الاخلاص المتمثلة فى الآيه (٢١) من البقرة الى غايتها المتمثلة فى سورة (الصمد) وقد وضحت رؤيته لهذا كله وناقشته وقومته ، قدر ما اعان الحق عز وعلا .

★ ★ ★

الخاتمة : خلصت ولخصت فيها ما جاءت به هذه الدراسة وما كانت تحب ان تصنعه ، ولم تفعل ، واسباب ذلك ، وما تود ان يتحقق فى محيط الدرس البيانى (اجمالى) للقرآن الكريم وبذلك تمت مباحث هذه الدراسة وخاتمته .

(اللحق) جعلت هذا اللحق لتحقيق نص تفسير البقاعى سورة النحل التى وقع عليها الاختيار لدراستها فى البحث الثالث وقد عالجت تحقيقها على ضوء اصول تحقيق النصوص العلمية المقررة مع القاء بعض من الضوء على ملامح حياة البقاعى ونتاجه فى شتى فنون المعرفة، واختصاص تفسيره « نظم الدرر من تناسب الآى والسور » بحديث مبسوط يتناسب مع قدره .

★ ★ ★

مصادر الدراسة : -

لا ريب فى أن المصدر العلمى الرئيس لهذه الدراسة هو تفسير البقاعى المسمى : « نظم الدرر من تناسب الآى والسور » ولما كلن

هذا التفسير في اثناء اعداد هذه الدراسة والى أن فرغت منها ما يزال مخطوطا ، ولم تسعد الديار الاسلامية الا بطبع أجزاء منه في انهد الى يومنا هذا ، وما تزال الديار المصرية محرومة من هذه الأجزاء .

لذا اتخذت نسخة مخطوطة مودعة في خزائن المخطوطات بدار الكتب المصرية ، [رقمها : ٢١٣ تفسير] مصدرا وقد حرصت على مقابلة النصوص منها حين أدرك اضطراما بنسخ أخرى في معهد المخطوطات العربية ، وفي خزانتي جزء من النسخة رقم (٢١٣) دار الكتب المصرية وجزآن من النسخة رقم ١٤٢ تفسير عن المكتبة الظاهرية بدمشق ، والمودعان بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة .

ثم اتخذت كتاب دلائل الاعجاز وكتاب اسرار البلاغة للامام عبد انقاهر ، والمطول للسعد ، والكشاف للزمخشري مصادر لا تفارقني وورودا وصدورا ، سواء نقلت منها نصا أم لم أنقل ، بل كنت دائم النظر والتأمل فيها على انى قد أودعت في آخر البحث ولحقه ثبنا مفصلا بأهم مصادرى ومراجعى ، فانظره ان أحبيت .

« ربنا آتتنا من لدنك رحمة وهىء لنا من أمرنا رشدا » صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله والمسلمين ، وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين .

Handwritten text, likely bleed-through from the reverse side of the page. The text is faint and difficult to decipher.

Handwritten text, likely bleed-through from the reverse side of the page. The text is faint and difficult to decipher.

Handwritten text, likely bleed-through from the reverse side of the page. The text is faint and difficult to decipher.

Handwritten text, likely bleed-through from the reverse side of the page. The text is faint and difficult to decipher.

التمهيد

– الفصل الأول : –

العلاقة بين اللفظ والمعنى

– الفصل الثاني : –

التناسب القرآني

مفهومه – دعائمه – ميدانه

(٢ – التناسب)

Handwritten marks on the left margin.

Handwritten notes in the middle section.

Handwritten text on the left side.

Handwritten text in the center.

Handwritten mark on the left side.

Handwritten text in the center.

Handwritten mark on the right side.

الفصل الأول

« العلاقة بين اللفظ والمعنى »

حظي تبیان هذه العلاقة باهتمامات كثير من المفكرين على اختلاف اتجاهاتهم ، ولن ينتهى القول فيها ما بقيت عقول وألسنة ، ولم ينل ما قاله ناقد مسلم فيها من الدرس والتقدير ما ناله قول الامام عبدالقاهر فقد عمدت دراسات عدة الى تحليل وتقويم جهوده ، فوضع فى بعضها على ذروة ما قيل فيها قديما وحديثا (١) .

بل ذهب الدكتور على جواد طاهر الى أنه قال « حقا وسجل سبقا نادرا ، ولكن الذين جاءوا بعده لم يسيروا فى خطه ، وظلوا حيث هم من الحديث عن اللفظة مقطوعة عما حولها ، وساروا ، كما بدأوا فى الفصل بين اللفظ والمعنى ... فى المشرق والمغرب » (٢) .

لا ريب فى أن ذلك حكم عميم ، ظلم جهودا جاءت من بعد عبد القاهر أقل ما يقال فيها ، من بعد درس وتحليل : أنها أجادت فهمه وتطبيقه ، بل ان استاذنا أبا موسى أعلى جهد الزمخشري على جهده (٣) .

(١) ينظر : قضايا النقد الأدبي لركى العشماوى / ٣١٩ ، ٣٢٢ ،

والميزان الجديد لمندور / ١٤٣ ، ١٤٨ ، واللغة العربية مبناها ومعناها لتمام حسان / ١٨ - ١٩ ومقدمة فى النقد الأدبي لجواد الطاهر / ٢٣٦ ، هامش رقم (٣٦) والأسس الجمالية لعز الدين اسماعيل / ٣٣٦ ، مجلة فصول ص ٣٣ / ع - ٣ / م - ١ .

(٢) مقدمة فى النقد الأدبي ص ٣٢٠ .

(٣) البلاغة القرآنية ص ١١ .

وليست بالذى يذهب الآن الى أن البقاعى قد أجاد الفهم والتطبيق وتجاوز الى الانماء والتعميق ، بل أذهب الى ان له فى هذا رأيا جديرا بالدراسة والنقد .

يقول الشيخ البقاعى : « ألفاظ المفردات ومعانيها ، وكل جملة على حيلها بمنزلة الجسد ، وارتباط اجمل بعضها ببعض حتى ان كل جملة تكون آخذة بحجزة ما أمامها متصلة بها ، يدرك ذلك من يذوق ويفهم ، ويسرى ذهنه فى ميادين التراكيب ويعلم » (٤) .

ظاهر المعنى أن الألفاظ بأصواتها ومعانيها الافرادية والتركيبية فى اطار الجملة الواحدة تمثل جسد الأسلوب وأن ما يتولد من اعتلاق كل جملة بما قبلها وما بعدها وتفاعلها معها هو روح الاسلوب المهيمن على كل عنصر فيه ، وان دق .

كأنه يقول ان علاقة الألفاظ (الجانب الحسى من العبارة) بمعانيها الافرادية والتركيبية : الوضعية والشعورية ، وكذا علاقة المعنى الافرادى بالتركيبى بعنصره فى الجملة الواحدة لا تتعدى علاقة عناصر الجسد المادية ، فكل عنصر فيه له قيمته ومكانته وفاعليته لكنها منفردة أو مجتمعة على أكمل اجتماع لا يمثل حياة هذا الجسد ، فحياته فى روحه ، وفى الوقت نفسه لا وجود لتلك الروح فى غير الجسد فهو مستقرها الذى تسرى فيه .

قصر «البقاعى» الروح على اعتلاق الجمل : بسيطة ومركبة ، من دون اعتلاق الألفاظ فى الجملة هو — فيما اذهب — فهم جيد لتظرية « عبد القاهر » . ان لم يكن انماء لها وتركيبية .

٢٦٠

(٤) نظام الدرر للبقاعى ج ٦ ق ٤١٣ (مخطوط رقم ٢١٣ تفسير

دار الكتب المصرية) .

وتسمية «البتاعى» ما يؤخذ من الاعتلاق بين الجمل روحا يعنى انذره المهيمن على كل شىء فى الكلام ، وانه يسرى فيه فيمنحه القدرة على أن يتفاعل مع غيره فى اطار كى ، وذلك هو المبدأ الموحد المتحكم فى الكائن الحى ، واللون والمشكل كل عناصره ، وهو ما أعجن النقاد فى الأعمال الابداعية (٥) وسبأتى مزيد بيان لذلك .

فلسفة « البقاعى » هذه يمكن ترجمتها الى أنه لا يتأتى لأحد أن يفصل أى عنصر من عناصر التعبير عن بقية العناصر ولا سيما فى البيان القرآنى ، لأن المضمون غيه بما يثيره من دقائق الفكر ورقائق الشعور انما هو مضمون لغوى ، ومن ثم كان العلماء القائلون بأن القرآن الكريم الذى نرتله بألفاظه ومعانيه غير حادث ولا مخلوق على وعى بهذه القضية : قضية التفاعل بين ألفاظه ومعانيه (شكله ومضمونه) مما أضفى على حروف ألفاظه المرتل بها قداسة يحرم لها مجرد لمس ماترقم فيه على غير المتطهرين بينما هى خارجه قد تكون زاد الشيطان وعبده الشعراء ، فتهتك بها أعراض وتسفك دماء وتثار فتن .

أضف لذلك حرمة أداء القرآن الكريم بغير ما ثبت عن رسول الله — صلى الله عليه وعلى آله وسلم — أو ليس ذلك آية على أن البناء اللغوى للقرآن الكريم — والأداء جزء منه — اذا ما حدث فيه أدنى تغيير أدى ذلك الى تغيير فى المضمون ، وهو ما بجرم الاقدام عليه ؟

أو ليس ذلك برهاننا على أن اللغة فى القرآن الكريم ليست وسيلة الى غاية فحسب ، بل هى فى الوقت ذاته غاية لها قداسيتها ؟ ومن ثم كان التالى لحروفه مفاضيا عليه من كوثر الحسنات وان لم يفهم من معناه شيئا قط .

(٥) ينظر فى هذا : دراسات نى الشعر والمسرح لمحسطفى بسوى ص ٦ - ٧ الطبعة الثانية ١٩٧٩ م - الهيئة المصرية العامة للكتاب .

في فهمي أن « البقاعى » استقى موقفه من اطلاق القرآن الكريم
كلمة «روح» على مستويين :

الأول : السر الباعث في انجسد حركة « حياة » ، وهو الذى
سأل عنه المعاندون « ويسألونك عن الروح ، قل الروح من أمر
ربى ... » الاسراء : ٨٥ •

الآخر : الهدى الالهى الباعث في المستوى الأول حياة أظهر
وأرقى ، وهو ما يجعل صاحبه جديرا بوصف الحياة : « ينزل الملائكة
بالروح من أمره على من يشاء من عباده » • النحل : ٢ •

« البقاعى » نظر في عالم البيان فوجد فيه ألفاظا وعلاقات بينها
وعلاقات بين الجمل ، وما علاها ، ورأى أن الجديرة باسم الروح
— اعلاء ومبالغة — هى ما بين الجمل من علائق •

أما التى بين الألفاظ المفردة في اطار الجملة الواحدة « الروح »
لها شأن ، الا أنه دون الأول بكثير ، فقصر مصطلح «الروح» على
ما بين الجمل وما علاها اعلاء ومبالغة •
؟

انبقاعى من حيث تنظير علاقة اللفظ والمعنى بعلاقة الجسد والروح
من حيث هو تنظير لم يكن المبتدع فقد كان ذلك قبله بكثير •
فقد صرح « اخوان الصفا » بأن « المعانى في الكلام كالأرواح ،
وألفاظها أجساد لها ، فلا سبيل الى قيام الأرواح بالأجساد » (٦) •

وكذلك يقول « ابن رشيق القيروانى » : « اللفظ جسم وروحه
المعنى وارتباطه به كارتباط الروح بالجسد ... » (٧) •

ونجد الدكتور « أحمد بدوى » يعتبر هذا التشبيه في كلام

(٦) رسائل اخوان الصفا ١٠٩/٣ (ط / ١٩٥٧ م) •

(٧) العمدة ١٢٤/١ (ط / ٤/ سنة ١٩٧٢ م) •

ابن رشيق مصورا الى مدى بعيد ما بين ركنى الأدب من صلة
لا تنفصم (٨) .

واعتبره الدكتور « احسان عباس » : نسا واضحا على ضرورة
التلاحم بين اللفظ والمعنى (٩) .

بل ان الدكتور « محمد أحمد العزب » ذهب الى أن «ابن رشيق»
بهذا قد أنهى الانفصال بين اللفظ والمعنى في الفكر النقدي العربي
القديم ، فأخذت القضية مسارها الصحيح (١٠) .

جلى أنه ليس دقيقا كل ما ذهب اليه الدكتور « العزب »
فابن رشيق ليس الذي أنهى الانفصال ، ووضع أساس الارتباط ، وراى
اتجاهها جديدا ، على حد تعبيره ، فالعتابى المتوفى سنة (٢٢٠ هـ) قد
قال قبله بقرنين من الزمان :

« الألفاظ أجساد ، والمعانى أرواح ، وانما تراها بعيون القلوب
فاذا قدمت منها مؤخرا أو أخرت منها مقدما أفسدت الصورة وغيرت
المعنى » (١١) .

المهم أن العتابى والآخرين أدخلوا المعنى المتولد من علاقة كلمة
بأخرى في اطار الجملة المفردة في مجال روح الأسلوب وجعلوا جسده
مقصورا على الجانب الحسى منه (الألفاظ) ، وربما كان هذا أقرب الى

(٨) أسس النقد الأدبى ص ٣٦٣ .

(٩) فن الشعر ص ١٩٣ .

(١٠) عن اللغة والأدب والنقد ص ٣٦١ (ط / دار المعارف سنة

١٩٨٠ م) .

(١١) الصناعتين لأبى هلال العسكري ص ١٦١ - تحقيق أبى الفضل

طبعة سنة ١٩٥٢ م .

العقل ، وأوضح تشاكلا بين الجانب الحسى للأسلوب وتسميته جسداً ،
ولكن البقاعى تجاوز ذلك كله وسما عليه ، كما تجلى لك من قبل •

أضف لذلك أن البقاعى لم يسم على سابقين له فحسب بل على
حقيقين محدثين :

يذهب الدكتور « عز الدين اسماعيل » الى أن حل مشكلة اللفظ
والمعنى يكمن — عنده — فى القول بالصورة الأولى ، والصورة الثانية •

الأولى : تشمل الدلالة الزمانية « التنسيق الصوتى للعبارة »
والدلالة المكانيّة « المعانى الأول التى تدل عليها الألفاظ » ، فعندما
نقول : « باب النجار مكسور » ، فالصورة الأولى تتمثل هنا فى
التنسيق الزمنى الصوتى للعبارة كلها على هذا النحو « با — بن — نج —
جا — ر — مك — سو — رن » •

وفى الدلالة المكانيّة المفهومة من الباب والنجار والكسر ، وما دل
عليه الوضع التركيبى للجملة •

والأخرى : تشمل ما يفهم أو يحس من وراء الصورة الأولى
بمعنيتها الزماني والمكاني ، وليكن ذلك المعنى فى هذه الجملة هو
« السخرية » •

ان معرفتنا الدلالة الزمانية والمكانيّة للتعبير لا يعنى أننا نعرف
الصورة الثانية منه (١٢) •

(١٢) الأسس الجمالية لعز الدين اسماعيل ص ١٧٣ — ١٧٥ (بايجاز)

ثم يستنتج الأستاذ من هذا أن المعنى لا ينفصل عن اللفظ إذا كنا نتحدث عن معنى اللفظ بما هو عنصر من عنصرى الصورة الأولى ، وهو ينفصل عنه إذا كنا نتحدث عن المعنى الذي يكون الصورة الثانية .

هذا هو الأساس الذى نضعه أمامنا دائما للفصل فى مشكلة اللفظ والمعنى ، ذلك أننا سنجد أن فكرة الصورة الأولى والصورة الثانية فى اللغة مستحل لنا الأشكال دائما ، ونجد أن الذين يربطون بين اللفظ والمعنى (١٣) كانوا يقفون عند الصورة الأولى ويعطونها الأهمية ، والذين يفصلون بين اللفظ والمعنى كانوا يتكلمون عن مفهوم المعنى من حيث كونه يمثل الصورة الثانية ، فيعطونه بدورهم أكبر الأهمية ، فهؤلاء يحكمون على الصورة الأولى ، وأولئك يحكمون على الصورة الثانية (١٤) .

فى فهمى أن الأستاذ جانب الصواب فيما انتهى إليه ، فعبد القاهر الذى اعترف الأستاذ بأنه يمثل الذين يربطون بين اللفظ والمعنى لا يريد فى حديثه عن اللفظ والمعنى الأولى « اندلالة المكانية بتعبير الأستاذ ، ولو أن هذا المعنى هو المراد فى كلامه وكلام السلف عن اللفظ والمعنى لما كان فيهم من يتوهم انفصال أو تقضيل اللفظ على المعنى أو المعنى على اللفظ ، لأن هذا المعنى الأولى « بمفهوم الأستاذ » لا يشغل بال النقاد ، إذ لا أثر للصنعة والموهبة

(١٣) يمد الأستاذ من هذا الفريق الامام عبد القاهر .

(١٤) السابق ص ١٧٥ - ١٧٦ .

فيه ، فنحن حين نقوله : « باب النجار مكسور » نتساوى دلالته المكانية كما يفهمها الأستاذ مع الدلالة المكانية عنده لقولنا : « مكسور باب النجار » . . . الخ مع أن ناشئة القوم عندنا عليم بأن الامام عبدالقاهر وجمهرة البلاغيين يقولون انه اذا ما تغير النظم فلا بد حينئذ من أن يتغير المعنى ، فيفرق بين « ان زيدا كالأسد ، وبين كأن زيدا أسد » (١٥)

ولعل الدكتور « عز الدين » حسب أن المعانى الثوانى خارجة عن قضية النظم عند الامام ، وذلك ليس بسديد ، فالامام قد نفى ذلك وأثبت أن الاستعارة والكناية وما يتراءى فيه المعانى الثوانى بجلاء انما هو من صميم النظم (١٦) .

كذلك جانب الأستاذ الصواب حين انتهى الى أن الذين كانوا يفصلون بين اللفظ والمعنى كانوا يتكلمون عن المعنى بما تدل عليه الصورة الثانية « عند الأستاذ » ذلك أن «البقاعى» بما سبق أن عرضناه ينقض هذا الاستنتاج ، لأن الصورة الثانية عند الأستاذ تطلق على الهدف والغاية من الجملة المفردة التى مثل بها ، وهى السخرية ، بينما «البقاعى» يجعل هذه الجملة بكل ما تشمل عليه ويدخل فى الصورة الأولى أو الثانية عند الأستاذ من قبيل جسد الأسلوب .

فى يقينى أن الدكتور « عز الدين » لو اطاع على موقف «البقاعى» لعدل عما ذهب اليه وانتهى . لكنه اكتفى بأن يقتات فتات موائد النقاد الغربيين فى حين أنه بين يدينا موروث فكرى وعقدى طيب كريم ، فيه الغناء لمن أراد .

(١٥) دلائل الاعجاز ص ١٨٢ (تصحيح أحمد مصطفى المرعى - طبعة ثانية نشر المكتبة المحمودية التجارية بالأزهر) .
(١٦) السابق ص ٢٥٩ .

الفصل الثاني

مفهومه — دعائمه — ميدانه

أول ما يسترعى الدارس لنتاج «البقاعى» تسميته تفسيره للقرآن الكريم بنظم الدرر من تناسب الآى والسور .

جعل ما فى الدرر نظما ، وما فى الآى والسور تناسبا وليس ذلك عن غير قصد ، ذلك أن من أسس منهجه الفكرى ولا سيما فى هذا التفسير أن « اسم كل شىء دال على جوهره » (١) .

والتقدم الواعى فى نتاجه يكشف عن تحريه الدقة فى تسميته مؤلفاته ، وتحريه الدقة — أيضا — فى بيان تناسب اسم كل سورة من انقرآن الكريم لمقصودها (٢) .

هو حين جعل ما فى الآى والسور تناسبا ، وما فى الدرر نظما كان على وعى بالغ من أمره ، وكان فيما أعلم ينظر الى ما بين مصطلح «النظم» و «التناسب» من مفارقة جوهرية من حيث دلالة المادة والتركيب لكل ، وحين ننظر فى كل نجد أن التناسب يستمد من مادته «ن.س.ب» أن العلائق بين أفراد عالمه جوهرية ، لأن علاقة النسب فى عالم الأنام علائق دم يجرى فى الأوصال ، ويشكل كثيرا من سماتهم الداخلية والخارجية ، وهى كما ترى علائق جوهرية أبدية ، ومثلها فى عالم الكلام ، لأنهما عالمان يكادان يسيران على نهج سواء .

أما مصطلح النظم فتعطى دلالاته اللغوية أنه ضم شىء الى

(١) نظم الدرر البقاعى ٤/١ (مخطوط) .

(٢) سيأتى مزيد تفصيل ودراسة لهذا المبحث الثالث من هذه الدراسة

آخر (٣) وغالبا ما تكون آيات التلاقي بين الأشباه المنظومة غير جوهريّة وذلك أقرب الى ضم الدر بعضه لبعض فلو دسست بين در حقيقي منظوما حبات زائفة مقارنة للحقيقي جحما وشكلا لما تيسر التفريق بينهما الا لخبير ، وذلك أن جانب المشاكلة في النظم اقوى وينظرها كل أحد ، ولكنه لا يرى جانب المفارقة الجوهرية فيها حين تتشاكل •

أما التناسب فان جانب المباينة والمفارقة أقرب الى العين ، فيسرع العقل للحكم بالمحافضة والتقاطع حين ينظر غياب التشاكل الحسى ، ولكنه ان تأمل بعين صقر وبصيرة خبير رأى جانب الاتفاق الجوهرى جد قوى ، وذلك ما نراه فى دنيا الناس حين يحكمون على أخوين غير متشابهين بانهما غير شقيقين ولو أنهم رحدوا الجوانب الجوهرية بينهما لامنوا بتأخيها وذلك هو السر الذى دفع بعض أهل العلم (٤) الى القول بعدم التناسب بين أجزاء القرآن الكريم لأنهم نظروا فى علائق الآيات والسور فوجدوا أنها لا تعتمد على المشاكلة الحسية أو المعنوية فى مستواها الأول ، ولو أنهم تدبروا لامنوا بعظيم التناسب بينها ، وعلموا أن روحا واحدا يهيمن على كل عنصر من عناصر السورة الواحدة •

لهذا رأينا «البقاعى» يستخدم مصطلح النظم للدرر والتناسب «التفاعل» لآى وانسور ، وهو استخدام يشف به فى ايجاز ولج حفى عن موقفه وفهمه للمصطلحين ، وعن جوهر تفسيره ومنهجه فيه فكرا وتعبيرا ، وذلك ما فهمت من التأمل فى عنوان تفسيره مرتكزا على منهجه فى التسمية ، وحين نتقدم معه فى مقدمته تدبيره نجده يعرف التناسب كعلم بقوله : « علم تعرف منه عل ترتيب الأجزاء ، وهو سر البلاغة لأدائه الى تحقيق مطابقة المقال لما اقتضاه الحال » (٥) •

(٤) على رأسهم العز بن عبد السلام فى كتابه الاشارة الى الايجاز •

(٥) نظم الدرر للبقاعى ج ١ ق «خطوط/ ٢١٣ تفسير بدار الكتب

الاصرية ، •

غير ذى نفع مناقشة مفهوم العلم هنا فذاك أمر كثر القول فيه ، ولا شك أن البقاعى ينطلق من فهم القوم للعلم ، ولا سيما عند أصحاب الحواشى والتقارير ، وهى جزء من تكوينه الثقافى المهم أن العلم مراد به ادراك للأصول والقواعد عن دليل وامكان استحضارها متى أريد ذلك من خلال هذا الادراك يقف الدارس موقف فقه ومعرفة للعلل المقتضية الاتيان بكل جزئية وعنصر من القرآن الكريم فى الموطن الملائم، والعلة انما هى المقتضى (بالكسر) ، وعليه فانه يمكن ترجمته بعبارة أخرى : (علم التناسب القرآنى هو ادراك المقامات ، والأحوال المقتضية الاتيان بكل عنصر فى موطنه الملائم له مع بقية العناصر) .

وظاهر التعريف يقصر التناسب على بيان الرتبة بين الأجزاء ، وهو واحد من أحوال اللفظ التى ذكرها البلاغيون ، فهل أغفل «البقاعى» الأحوال الأخرى أو نفاها عن مجال التناسب ؟

للإجابة عن هذا نذكر أن «البقاعى» فى بيان التناسب بين الجهل والآيات كان كما يقول : (يمهّد لكل جملة مهاداً يدل على الحال الذى اقتضى حلولها ، وأوجب ترتيبها على ما قبلها من شكلها ، وما أوجب تأكيدها ، أو اعراءها ، وتقييدها ، ونحو ذلك من أفانين الكلام وأساليب النظام) (٧) .

فالتناسب عنده بهذا يتناول بيان مقتضيات الأحوال لترتيب وترتيب أجزاء الكلام وعناصره الخ .

(٦) ينظر فيض الفتح وعبد الحكيم ج ٢ ص ١٠ ١٨ ، ارشاد السارى ١٠٢/١ .

(٧) مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور . ق/٢ مخطوط للبقاعى رقم ١٩٦٩١ ب - دار الكتب المصرية .

و «البقاعى» حين اقتصر على جانب الترتيب في تعريفه السابق فحظر الى قوله بعد ذلك (وهو سر البلاغة لأدائه الى مطابقة المقال لما اقتضاه من الحال) ذلك أن المعهود في تحقيق المطابقة والتركيز على جوانب التركيب (بمفهوم البقاعى الآتى بعد) أكثر من الاهتمام بالترتيب ، فإلعله أراد بما فعل لفت الأذهان الى قيمة جوانب الترتيب فى التقاسب القرآنى بعد أن أفاض البلاغيون فى بيان قيمة جوانب التركيب فيه .

وشىء آخر هو أن الاقتصار على التصريح بالترتيب فى التعريف إنما كان ينظر الى المستوى الأعلى ، ذلك أن التقاسب الذى هو سر الاعجاز القرآنى يعتمد على نوعين من النظم لأحدهما من الروعة ما يفوق الآخر وهما :

(أ) النظم التركيبى :

« وهو نظم كل جملة على حياها بحسب التركيب (أ) بمعنى أنه يتناول كل مظهر بلاغى فى اطار الجملة سواء كان فى ركنيها أو المتعلقة وان تكاثرت ، ومن هذه المظاهر الترتيب بين عناصر الجملة الواحدة كتقديم السند أو المفعول أو الظرف ، فعلى الرغم من أن الترتيب هنا جزء من النظم الا أن اليقاعى لا يضعه فى مقام الترتيب بين الجمل ومن ثم كان الترتيب بين عناصر الجملة الواحدة عنده من قبيل التركيب لا الترتيب ولعله يريد بهذا أن الترتيب لا بد أن يسبقه تركيب فالمفردات لا ترتب ، وانما تتركب لىكون منها جمل ترتب بعد ذلك مع بعضها .

(أ) نظم الدرر : ٣/١ مخطوط (النسخة السابقة) .

فكل الأساليب التي تتناول نظم عناصر الجملة الواحدة من غير تحديد لها • تمثل عنده النظم التركيبي الذي لا يكون الا جسداً لأسوب، وهذا النوع من انظم عنده « قريب التناول ، سهل التدوق ، فان كل من سمع القرآن من ذكى وغبي (!؟) يهتز لمعانيه وتحصل له عند سماعه روعة بنشاط ورهبة مع انبساط لا تحصل عند سماع غيره وكلما دقق النظر في المعنى عظم عنده موقع الاعجاز » (٨) •

وكثير من الناس في صحبة استحضار قواعد علوم البلاغة التي عنى البلاغيون بها تحريراً وتطبيقاً يستطيع تناول كثير من ثمر هذا النظم ، ومن هنا يمكن القول بأن ترك «اليقاعى» هذا النظم التركيبى في تعريفه التناسب اشارة الى قيمة هذا النظم ، وذلك ضرب من منهجه في التقويم والتعبير عنه •

(ب) النظم الترتيبى :

هو « نظم كل جملة مع أختها بالنظر الى الترتيب » (٨) بمعنى أنه يكتنز في ارتباط كل جملة بعضها ببعض حتى ان كل جملة نكون آخذة بحجزة ما أمامها متصلة بها « (٩) وبيان رتبة كل جملة مما قبلها وبعدها ، والجملة تشكل نيه أصغر جزئية ، فهو اذن يقوم على تبيان العلاقات بين وحدات النظم التركيبى ، وهذا النظم هو الدعامة الرئيسية للتناسب عنده ومهمته بناء نتاج النظم التركيبى في هيكل متكامل متفاعل متناسب بحيث تكون كل جزئية «الجملة» آخذة بحجزة ما أمامها متصلة بها في اطار السورة كلها •

تأمل قوله : « آخذة بحجزة » فهو يعطى ايجاء بشدة الاحتياج

(٧٦ - ٧٧) - ما هو الـ (١١)

(٧٨ - ٧٩) - ما هو الـ (١٢)

(٧٧ - ٧٨) - ما هو الـ (١٣)

(٩) السابق ٤١٣/٦ هـ

الى هذا الأخذ وأنه في قوة ، كما أن التعبير بالحجزة يدل على شدة
التمكن والاعتلاق ، وأنه يكون بأواسط الأشياء لا أطرافها ، فلا يكون
من قبيل ما يسمى بالربط الجزئي بين الآيات أو الجمل ، وهو الذي
يعيبه بعض النقاد المحدثين على بعض الأعمال الإبداعية التراثية
«فالبقاعى» مع حرصه على تبيان هذا الربط الجزئي بين الجمل والآيات
في السورة الا أنه يشترط لكل سورة مبدأ واحدا وروحا يهيمن على كل
عصر من عناصرها دق أو جل حتى يشمل السورة كلها •

المهم أن «البقاعى» رد الإعجاز القرآنى الى الاعتلاق بين الجمل
التي ركبت عناصرها على وجه من الإعجاز بديع وما علا الجملة الى
السورة كلها في القرآن كله • والفلاسفة والنقاد من قديم يردون
انجمال في الأشياء كلها حسية أو عقلية الى ما بين عناصر الأشياء من
علائق وانسجام «فأرسطو» مثلا يقول « الكائن أو الشيء المكون من
أجزاء متباينة لا ينم جماله ما لم ترتب أجزاؤه في نظام ، وتتخذ أبعادا
ليست تعسفية ذلك أن الجمال ما هو الا التنسيق والعظمة » (١٠) •

ونراه أيضا يرد مبعث السرور غينا ازاء الأشياء السارة الى
عصر الترنيب (١١) وقبله ذهب «أفلاطون» اهى أن التقاسب عنصر
رئيس من عناصر الجمال (١٢) وكذلك فعل أفلاطون (١٣) والأشياء
في نظر «أوغسطين» لا تكون جميلة الا اذا تشابهت أجزاؤها وانتظمتها

- (١٠) ينظر : في الشعر ص ٦٠ ترجمة شكري عباد ط ١٣٨٦ هـ
دار الكتاب العربي وعلم الجمال / دينيس هوسمان / ٢٤ ترجمة أميرة مطر
(١١) علم الجمال - هوسمان / ٢٦ - ٢٧ •
(١٢) فلسفة الجمال للدينى / ٨٢ - ٨٦ •
(١٣) علم الجمال دينيس / ٢٧ •

انسجام واحد (١٤) ومثله عند «سانت توماس» ، وان أضاف الى التناسب التكامل والوضوح حتى يتحقق الجمال (١٤) ويذهب «سيرل بيرت» الى أن الذي يكون جوهر الجمال هو وجود نوع من النظام أو الترتيب ليس سطحيا أو دخيلا ، ولكنه طبيعي حرم ، كالخصائص التي تقرر نمو النبات (١٥) وما قاله «سيرل بيرت» يتطابق مع ما يذهب اليه «البقاعى» منذ خمسة قرون مضت .

كذلك يرى «هاربرت» وأتباعه أن الجمال يتكون فى صورة خاصة ، وعلاقة بين الاجزاء فى المفهوم (١٦) ويعد «وليم هوجارد» انتناسب والتنوع على رأس العوامل والمؤثرات التي تؤسس فى مجموعها سمة الجمال فى الأشياء (١٧) وظاهرة الجمال عند «كانط» انما تستثير اعجابنا . لأنها تعبر عن الانسجام أو النظام وهذا هو قوام الجمال ، ومناطق تفريرنا واعجابنا بالشئ الجميل فى مجاله الطبيعية (١٨) .

خلاصة القول أن جمهوره من الفلاسفة والنقاد قد ردوا مظهر الجمال فى الأشياء الى ما بين عناصرها من تناسب وانسجام وترتيب قائم على ما بينها من علائق ، وذلك « فالصورة الجميلة بنية حية تشتمك أجزاءها فى علاقات فيما بينها ، وهى فى مجموعها تكون تلك الوحدة التي هى فى الواقع نتيجة لتلك العلاقات » (١٩) .

(١٤) الأسس الجمالية / ٤٧ .

(١٥) كيف يعمل العقل / ٢٤٥ (الكتاب الثانى) ترجمة محمد خلف الله

أحمد .

(١٦) الأسس الجمالية / ٥٦ ، ١١٨ - ١١٩ .

(١٧) فلسفة الجمال ونشأت الفنون الجميلة د/ محمد على أبوروان

/ ٢٨ ، ٢٩ ، ٣١ .

(١٨) السابق / ٣٦ .

(١٩) الأسس الجمالية لعز الدين سماعيل / ١٢٥ .

(٣ - التناسب)

أستطيع من خلال ما مضى القول بأن «البقاعى» حين جعل من أسس الاعجاز القرآنى التناسب كان على وعى من أمره ، وكان بصيرا حين جعل الاعتلاق بين عناصره ليس سطحيا أو دخيلا وانما يرجع الى محور واحد يحرص « البقاعى » على تحديده فى مفتتح كل سورة ويسميه المقصود الكلى ، ومعرفة هذا المقصود هى المفيدة لمعرفة المقصود من جميع جملها (٢٠) .

وتحرير المقصود الكلى لا يأتى من فراغ وانما من خلال التدبر البصير فى الجزئيات ، فيقف على المظهر المقصود من الكلام وسره ولبابه (٢١) ومعنى هذا أنه لا انفكاك بين النظم التركيبى والترتيبى ، كل منهما يعطى الآخر ويأخذ منه وقد أكد البقاعى هذا المعنى بقوله « المقصود بالترتيب معان جليلة الوصف بديعة الرصف علىة الأمر عظيمة القدر مباحدة لمعانى الكلام على أنها منها أخذت » (٢٢) ومعنى هذا أن المتدبر لقرآن يظل يتنقل بين التأمل فى الجزء والتأمل فى الكل، فيعيش فى حركة دائرية وهو يحاول تأويل النص وتدبره ، وهو مايشير اليه المفكر الألمانى «شليماخز» (ت١٨٤٢م) حيث يقول : لكى نفهم العناصر الجزئية فى النص لا بد أولا من فهم النص فى كليته وهذا الفهم للنص فى كليته لابد أن ينبع من فهم العناصر الجزئية المكونة له (٢٣) .

قارئ هذا النص يتداعى الى عقله موقف «البقاعى» فى نهجه

(٢٠) نظم الدرر البقاعى ٢/١ (مخطوط) .

(٢١) السابق ٤١٣/٦ .

(٢٢) السابق ٣/١ .

(٢٣) مجلة فصول / ١٤٥ العدد ٣/١ - ا.جلد ١ /

ومسيرته في تفسيره ، فهو يدور بين تحليل الجزئيات في ضوء المقصود الكلي ، وتحرير المقصود في ضوء تركيب الجزئيات ولذلك نراه يقوم بتعديل خطته ومنهجه في تفسيره عندما يصل الى سورة « سبأ » فقام بالتحرير الدقيق لمقصود السور السابقة عليها وتفسير جزئياتها على ما ارتضاه (٢٤) .

مما يؤكد أنه دائم الحركة الدائرية الترددية بين المقصود الكلي والجزئيات في الاطار العام للسورة ، ثم القرآن كله لرحابة ميدان الانتساب .

وإذا كان النظم الترتيبي والتركيبي كل منهما يعتمد على الآخر أخذاً وعطاءً فان «البقاعى» يذهب الى أن الترتيبي بحاجة شديدة الى نوعى والبقظة لأنه في غاية الخفاء فاذا أراد المتدبر العبور من النظم التركيبي الآنف تبيانه الى تأمل ربط كل جملة بما تلتها وما تلاها خفى عليه وجه ذلك ورأى أن الجمل متباعدة الأغراض متناثية المقاصد ، فظن أنها متنافرة ، فحصل له من انقبض والكرب أضعاف ما حصل له بالسماع من الهز والبسط فربما شككه ذلك وزلزل ايمانه وزحزح ايقانه وربما وقف ذلك بكثير من المخالفين في هذا الدين (٢٥) .

كأنى بالبقاعى يستشعر منذ خمسة قرون المواطن التى سيحاول بعض المستشرقين (٢٦) والأدعياء الطعن منها في أسلوب القرآن .

(٢٤) نظم الدرر ١٦٣/٢ - ١٦٤ ، ومصاعد النظر . ق/٧ .

(٢٥) نظم الدرر ٣/١ .

(٢٦) ينظر مذاهب التفسير الاسلامى ، لجرالد تسيهر ص ٤١٢ ترجمة

النجار - طبعة سنة ١٣٧٤ هـ .

ان سبب هذا الجهل بالاعتلاق خفاء مظاهره بين الجزئيات «الجمال» بحيث لا يستجنيها من كان على بصيرته غشاوة ، ولكن من اتخذ الوسائل الى فهم القرآن « واستعان بالله ودوام الطرق لأبواب انفرج بانعام التأمل ، واطهاره العجز والوثوق بأنه « آى القرآن » فى الذروة من احكام الربط ، كما كان فى الاوج من حسن المعنى واللفظ ، لكونه كلام من جل عن شوائب النقص ، وحاز صفات الكمال ايماننا بارغيب وتصديقا لثرب قائلا ما قال الراسخون فى العلم :

« ربنا لا ترغ قلوبنا بعد اذ هديتنا ، وهب لنا من لدنك رحمة انك أنت الوهاب » • (آل عمران : ٨) انفتح له ذلك الباب ولاحت من ورائه بوارق أنوار تلك الأسرار ، ورقص الفكر منه طربا ، وسكر — والله — استغرابا وعجبا ، وطاش لعظمة ذلك جنانه ، ورسخ من غير مرية ايمانه ، ورأى أن المقصود بالترتيب معان جليلة الوصف ، بديعة الرصف ، عليه الأمر ، عظيمة القدر ، مباحدة لمباني الكلام على أنها منها أخذت (٢٧) •

الغظم الترتيبى — اذن — يأتيه سمو أثره ، وصعوبة تأمله وادراكه من خفائه وشموله وهيمته على كل عنصر بحيث يحتاج من المتأمل الى رحابة أفق وعمق فهم ، وبصيرة ، وقدرة على الاختزان الأمين لدقائق ورفائق البيان ، والتتبع الدقيق لكل حركة جزئية ، غيرصدها بعين صقر ، ليحظى بالروح المسك بكل صغيرة وكبيرة ، وشاردة بعد أن ألفت اليه مقاليدها ، وذلك أمر صعب مراسه •

ومن ثم كان مثير اللذة والمتعة فينا ، ذلك ان هذه الأشياء انما يتيرها فى الانسان الانتباه الذى « فى أساسه يتوقف على مقدرتنا

على أن ندرك شيئاً من العناصر المجموعة في نظام موحد ، وإنما يجب الشخص الصورة أو القصة أو اللحن حينما تكون هذه معقدة ومنوعة لدرجة يبقى بها الانتباه دائم النشاط (٢٨) .

بهذا ترى «البقاعى» يعتمد على أنه لا يستطيع تحديد المعنى الدقيق لعنصر ما الا من خلال المقصود الكلى للسورة ، وذلك أمر قد صرح بطلبه في الأعمال الابداعية ، وأكدته النقد الأدبى الحديث بعد ذلك بعدة قرون وشواهد ذلك من مصادر ومراجع النقد الحديث بين يدي جد كثيرة يضيق المقام عن ذكرها (٢٩) .

(٢٨) كيف يعمل العقل لسيرل بيرت ٢/٢٤٦ ، ترجمة محمّد خلف الله أحمد .

(٢٩) راجع ان أحببت : النقد الأدبى لوليم فان اوكونور /١٠٦ - ترجمة صلاح أحمد ابراهيم وقواعد النقد الأدبى لكروبي /٥٦ ، ٥٧ ، وكيف يعمل العقل ٢/٢٤٢ وفلسفة الجمال لعبد الفتاح الديدى /٢١١ - ٢١٢ ، وفلسفة وتن لزكى نجيب محمود / ٢١١ - ٢١٢ ، وكتاب : كاتط أو الفلسفة النقدية / ٣٠٤ لزكريا ابراهيم ومشكلة المعنى فى النقد الحديث لناصر / ٧٩ ، ولنقد التحليل لأحمد الصاوى / ١٢٩ ، ١٢٨ والنقد الانجليزى الحديث لماهر شفيق / ١٧ ، ومجلة فصول / ٩٧ عدد ٢/٢ ، مجلد / ١ .

المبحث الأول

جوانب تتناسب الكلمة مع السياق والقصد

- من حيث مادتها
- من حيث هيئتها
- من حيث أدائها
- من حيث رسمها
- من حيث الخصائص الصوتية

[Faint, illegible handwritten text, possibly bleed-through from the reverse side of the page]

مدخل :

لما كان القرآن كلمة الله جل جلاله المعجزة ، وكان الله العليم بكل شيء الخبير بجميع مقتضيات أحوال اللفظ القرآني ، وأحوال المتلقين على اختلافهم ... كان حتماً أن يستوى البيان القرآني على عرش الإعجاز .

والدرس البلاغي للقرآن الكريم لا يرمى قط الى التذليل على ذلك فقد أضحى حقيقة الحق نفسه ، لا يتوقف فيه الا مأفون وانما يرمى الدرس البلاغي اليوم الى تبيان النهج انذى سلك القرآن لغذاء وامتع القلوب والعقول قبل كل شيء ، ثم تقريب الأمر ورفع المنائر على السبيل لمن يبغي فيها مسيراً .

ولما كانت الكلمة القرآنية ذات جوانب متعددة :

- أ - جانب معجمي : يتناول مدلول مادتها الذي ترثه من أسرتها
- ب - جانب صرفي : يتناول شكلها التكويني الذي تبرز فيه .
- ج - جانب أدائي : يتناول نطقها وتلاوتها الذي تتلقاه الاذن .
- د - جانب املائي : يتناول تصويرها الخطي الذي تتلقاه العين .
- هـ - جانب صوتي تجريدي : يتناول جرسها وظواهرها الصوتية الكامنة في حروفها من حيث هي ، والدراسة لا تتناولها الا في فواتح السور .
- و - جانب نحوي : يتناول موقعها وعلاقتها بالأخريات ، وهو ما ينمو التعبير ويتسامى من خلاله .

لما كانت كذلك ، فانى أتناول بالدراسة هنا تبين منهج البقاعى
تنظيرا وتطبيقا لابرار تناسب الكلمة من هذه الجوانب مع السياق
والقصد .

وجلى أنه لن يكون تناولنا للكلمة الواحدة من كل هذه الجوانب
دفعة واحدة ، فذلك مقام تسكب دونه العبرات ، وتتقطع الأغناق أنى
لبشر غير نبى أن يستطيع النهوض له وبه ؟

لكنى التزم بما تناونه « البقاعى » أيا كان ذلك الجانب ، على أنه
تجدر الاشارة الى أن بعض الجوانب قد تتدخل ، كالصوتى التجريدى
والآدائى والصرفى والخطى ، فى الكلمة الواحدة ومن ثم يكون الأمر
جد عسير ، لذلك سعيت فى دراسة التناسب من حيث الخصائص
الصوتية الى ما لا قبل لنا بلمح بقية الجوانب معه فى كلمة واحدة ، وهو
ما يسمى بفواتح السور (الحروف المقطعة) .

كذلك لم أتناول فى هذا المبحث الجانب النحوى من الكلمة لأنه
يتجاوز حدود الكلمة بل لا وجود له الا فى تجاوز فرديتها ، وذلك
ما ستراه فى المبحث الثانى حرصا على تماسك فصول الدراسة وتناسقها
وانسجامها .

الفصل الأول

تناسب الكلمة مع السياق والقصد من حيث مادتها

أريد بمادة الكلمة ما ترثه من اسرتها ، وتشترك فيه مع شقيقاتها في هذه الأسرة ، وما تكسبه هي خلال رحلتها عبر الاستعمالات ، والبقاعى في ابراز انتاسب من هذه الجهة نهج يركز عليه ذو محورين

الأول : الرجوع بالكلمة احيانا كثيرة الى اصلها الدلالى الحسى •

الآخر : الوقوف عند بعض الألفاظ وتحليل دلالتها في بقية افراد اسرتها المتولدة من التقبّات الصوتية ، اذ يحاول أن يكشف عن المحور الذى ترتكز عليه دلالة كل كلمة من كمات هذه الأسرة ، وهو ما يسمى « بدوران المادة حول معنى واحد » •

« والبقاعى » يستطرد في هذا كثيرا حتى ان المادة اللغوية الواحدة لتتشغل عدة صفحات من تفسيره المخطوط ذى القطع الكبير ، مما غد يدفع الى قلب القارىء العجل السأم والضجر ، غير ان ارتريث والمثابرة والوقوف على مراد الرجل من ذلك يدفعك الى حمد صنيعه : ان منهج الشيخ في تفسيره هذا قائم على أساس فكرة التناسب - كما وعاما ونماها - وهى فكرة ترتكز على وجود محور تدور عليه الاشياء التى قد يحسب انها متقاطعة ومتدابرة ، ومن ثم كان « انبقاعى » حريصا على تبيان هذا المحور ، أو هذا الروح السارى في دلالات الكلمات ذات الأسرة الواحدة •

محوران أبصرتهما في منهج « البقاعى » في تدبره تناسب عناصر البيان مع السياق والقصد ممثلة في الكلمة من حيث مادتها •

أولى وقفائنا معه في تدبره تهذيب الحق عز وعلا بنى آدم
وتربيتهم بما يتلاءم مع خصائص أهل الفضل الإدراكية ، دون أن يشعر
أهل القطيعة ، وذلك في قول الحق عز وعلا :

« وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ، ولكم في الأرض مستقر
ومتاع الى حين » (البقرة : ٣٦)

يقول الشيخ مبرزا التناسب العالى المعجز وعطاءه الثرى الطيب:

« الامتناع هو الانتفاع بالمنتفع به وقتا منقطعا يعرف
نقصه بما هو أفضل منه ففيه اشعار بانقطاع الانتفاع
بما هو في هذه الدنيا ، ونقص بما به الانتفاع عن محل ما كنا فيه
من حيث ان لفظ « المتاع » اطلق في لسان العرب على « الجيفة » التى
هى متاع المضطر ، وارزاق سباع الحيوان وكلابها ، فكذلك الدنيا هى
جيفة ، متع بها أهل الاضطرار بالهبوط من الجنة بها وجعلها حظ من
لا خلاق له في الآخرة » (١)

لعل « البقاعى » يستحضر هنا عنصرين من العطاء الدلالى لمادة
(م . م . ع) هما الانقطاع والحقارة (٢) وذلك ما ورثته انفاظ هذه المادة

(١) نظم المرز للبقاعى ٤٩/١ « مخطوط » .

(٢) يقال متع النهار اذا ارتفع قبل الزوال ، ومتع الضحى بلغ آخر
غايته ، ومتع السراب ارتفع ، والمتعة أن تتزوج امرأة تتمتع بها أياما ثم
تخلي سبيلها ، وان تضم عمرة الى حجك ، وما يتباعد به من الزاد وما وصلت
به المرأة بعد الطلاق . وأطاق انتاع على ما قابل الحلية (الذهب والفضة)
« وما يقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله » (الرعد / ١٧)
كل ذلك يبرز فيه معنى الانقطاع والحقارة .

ينظر لسان العرب لابن منظور والقاموس المحيط والمفردات للراغب
الاصفهانى مادة (متع) .

وعلى رأسها لفظ « متاع » ولذلك لم يصفه القرآن الكريم الى الآخرة بينما جعله من حظ الدنيا . يقول تعالى : « ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب » (آل عمران . ١٤) ، « وما الحياة الدنيا الا متاع الزور » (آل عمران : ١٨٥) ، « أفمن وعدناه وعدا حسنا فهو لآقيه كمن متعناه متاع الحياة الدنيا » (القصص : ٦٠) ، « وما الحياة الدنيا الا متاع الزور » (الحديد : ٢٠)

بل انه ليوازن بين الآخرة والدنيا فيطلق على الدنيا متاعا ويصفه بانقله .

يقول تعالى : « وما الحياة الدنيا في الآخرة الا متاع » (الرعد: ٢٦)
« فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة الا قليل » (التوبة : ٣٨)

ومما يبرز حقارة نعيم الحياة الدنيا ما أثار عن أهل الحكمة :
« الدنيا جيفة وطلابها كلاب » (٣)

كل ذلك يقوم عوج الوهم حين يستشعر من ظاهر لفظ « متاع » مخايل البهرج والاعراء ، ولاسيما في صحبة قوله « مستقر » والتعدية باني دون انلام « الى حين » .

ان الفاقهين — والبقاعى من شيوخهم — يرون في هذه المصاحبات التعبيرية مضافا اليها التعدية بفي وتقديم « لكم » وتكرير « حين » تأكيدا وتقريرا بالغا لانقطاع نعيم الدنيا ، وتنقيح القرآن الكريم بنى آدم من الاستكانة اليه ، والرضا به غاية ، وان كلمة « مستقر » لايعطى — هنا — معنى الخلود لانه علق به (في) دون (على) أى ان كمال

(٣) نص الصاغاني على أن ذلك ليس بحديث نبوي ، كما قد يظن
راجع الموضوعات للصاغاني ص ٣٦ (ط / ١٤٠١ هـ . تحقيق نجم خلف الله

قرارهم اللازم لعدم الحركة انما يكون فيها لا عليها ، وكأني به يشير الى حال بنى آدم في الأرض وعليها • لهم في الأرض مستقر من بعد الموت ، ولهم عليها متاع الى حين من قبل الموت ، ولاسيما ان تتكبير لفظ « حين » يوحى بحقارته وقربه •

كل ذلك يبدو لى انه كان يعتمل في عقل « البقاعى » وقلبه ، وهو يتدبر هذه الآية ، وما يلوح من آيات التناسب الدقيق لاستخدام لفظ متاع ، وما فيها من تعليم لمنهج الذى يجدر بالعاقل ان سلكه في تعامله مع متاع الدنيا ، انه منهج المضطر الذى رسمه قول الحق عز و علا : « فمن اضطر غير باع ولا عاد فلا اثم عليه ان الله غفور رحيم » (البقرة : ١٧٣)

لقد كان للموروث الدلالى لهذه الكلمة « متاع » وما معها من مصاحبات لغوية وتركيبية على لا حب هذا السياق الاقتدار الاسمى والأسنى على ابراز العطاء المهدب بنى آدم ، كيما يقوموا بحقوق الخلافة حق قيام • وقد كان « البقاعى » الفقيه لهذا الاقتدار ، فابرزه في دقة وايجاز •

* * *

وقد يعبر القرآن الكريم بكلمة — وهو يحكى مقال قوم — ليكشف بها في سياقها ومصاحباتها اللغوية عما يضطرم في خبايا النفوس ، فتكون الفاضحة لهم ، وذلك ما يلمح « البقاعى » آياته في قول الحق — عز و علا — حاكيا مقام المنافقين في سورة « الاحزاب » :

« واذا قالت طائفة منهم : يا اهل يثرب لا مقام لكم ، فارجعوا •• » (الاحزاب : ١٣)

ان كلمة « يثرب » لم ترد في الذكر الحكيم في غير هذه الآية الكريمة ، ووردت كلمة « تثريب » وهي من أسرتها « الثرب » في سورة (يوسف : ٩٢)

« لا تثريب عليكم اليوم »

والبقاعى يشير الى ان المنافقين « عدلوا عن الاسم الذى وسما به النبى - صلى الله عليه وسلم - من المدينة ، وطيبة (٤) مع حسنه الى الاسم الذى كانت تدعى به قديما مع احتمال قبحه باشتقاقه من الثرب الذى هو اللوم والتعنيف اظهارا للعدول عن الاسلام » (٥)

فكلمة « يثرب » بما تحمله من دلالات وايحاءات ورثتها من الجذر الاشتقاقى لمادتها وما اكتسبته من حياتها عبر تاريخ الاستعمال لها وما تفجره من ذكريات وعهود بالحمى وما ينتقظ من حروفها من شأنان ، بذلك كله فى صحبة دلالات المصاحبات اللغوية مثل (طائفة ، والنداء بيا ، واستخدام كلمة أهل ، وتأنيت الفعل (قالت) كل ذلك على لاجب

(٤) فى البخارى (كتاب الحج . باب فضل المدينة) بسنده عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أمرت بقرية تاكل الثرى ، يقاؤون يثرب ، وهى المدينة ، تنفى الناس ، كما ينفى الكير خبث الحديد ، وفى مسند أحمد ، عن البراء بن عازب رفعه : من سمى المدينة يثرب فليستغفر الله ، هى طابة ، هى طابة ، وروى عن النبى - صلى الله عليه وسلم - أنه نهى أن يقال للمدينة يثرب ، وسماها طابة ، ولعله كره تسميتها يثرب لما فيه من معنى التثريب الذى هو التأنيب والتعير والأستقصاء فى اللوم ، والافساد والخليط ، ينظر شرح النووى صحيح مسلم : كتاب الحج ، وارشاد السارى : كتاب الحج ، ولسان العرب لابن منظور : مادة (ثرب) .

(٥) نظم الدرر للبقاعى ٤٥٢/١ (مخطوط) .

سياق تبين حقيقة المنافقين حين تكون الشدة خاصة ، بكل ذلك تكشف هذه الكلمة ما يعتمل في دخيلة قلوبهم ويتأجج في افئدتهم • وبأنهم يريدون بالعودة الى الاسم القديم لهذه البقعة الذي كانت تسمى به من قبل مقدم المصطفى — صلى الله عليه وسلم — العودة الى الحال العقدي الذي كانوا عليه اذاك ، وكانهم — ايضا — يشيرون الى يوم الانصار وتعنيفهم على ما هم فيه من اسلام ، فتسرب ما في نفوس أولئك المنافقين وفاض من هذه الكلمة ، فكانت الكاشفة الفاضحة ، وهي التي ارادوا منها أن يكون الراشقة قلوب الانصار الصائدة افئدتهم ، الاسره البابهم فيكونون كما أراد المنافقون منهم ولهم •

ان في وقفة البقاعى والمفسرين من قبله ومن بعده امام هذه الكلمة دحض لما يهتف به بعض المحدثين من مؤاخذه للموروث البلاغى والنقدى بعدم ملاحظة مطابقة البيان لمقتضى الأحوال الداخلية التى تمر بها النفوس المتكلمة فننتقط الاسرار النفسية من بين ثنايا الاسرار اللغوية •

ومثل ذلك ما نجده من البلاغيين والمفسرين عند تدبرهم قول الحق عز وعل — حاكيا عن سيدنا زكريا « واشتعل الرأس شييا » وحاكيا عن السيدة أم مريم « وانى وضعتها انثى » ، بل ان مجرد قراءة آخر الفصل الذى عقده عبد القاهر لربط الكلام بان وأغنائها عن النفاء كاف لمن كان له قباب أو التى السمع وهو شهيد (٦)

* * *

(٦) يقول الامام « واعلم انها (أى أن) قد تدخل للدلالة على أن الظن قد كان منك أيها المتكلم فى الذى كان أنه لا يكون وذلك قولك للشئ هو برأى من المخاطب ومسمع أنه كان من الأمر ما ترى وكان منى الى فلان احسان ومعروف ثم انه جعل جزائى ما رأيت فتجعلك كأنك ترد على نفسك ظنك الذى ظننت وتبين الخطأ الذى توهمت » ينظر دلائل الاعجاز ص ٢٢٣ تحقيق المراغى •

إذا كان « البقاعى » قد لمح في استخدام كلمة « يثرب » كسفا عما يضطرم في نفوس المنافقين ، فإنه قد أبصر في التعبير القرآنى عن ما ترسب في عقولهم من أهوال الموقف نفسه (غزوة الأحزاب) بلفظ قد يتداعى الى بعض الاوهام انه مرادف لغيره ، فاذا به يكشف عن حقيقة تلك العقول ومبلغ ما تقتدر عليه من ادراك :

يقول انحق عز وعلا :

« يحسبون الاحزاب لم يذهبوا ، وان يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون في الأعراب يسألون عن انبائكم ، ولو كانوا فيكم ما قاتلوا الا قليلا » (الاحزاب : ٢٠)

عبر القرآن الكريم هنا عما ادركته عقول المنافقين من هول الأحداث بالفعل « حسب » دون « ظن » لما بينهما من مفارقة في الدلالة ، ينقلها عن ابي الحسن الحرالى (٧) فيقول :

« الحسبان يقع فيما هو من نوع ما فطر الإنسان عليه واستنقر عادة له ، والظن فيما هو من المعلوم المأخوذ بالدليل والعلم ، فكان ضعف علم العالم ظن ، وضعف عقل العاقل حسبان » (٨)

(٧) هو : على بن أحمد بن الحسن بن ابراهيم التجيبي (ت ٦٣٧هـ) له تفسير القرآن الكريم ، وشرح أسماء الله الحسنى وشرح أسماء النبي صلى الله عليه وسلم ، وفتح الباب المنفل لفهم الكتاب المنزل ، جعله قوانين كقوانين أصول الفقه ، وقد حققته وعلقت عليه ، وسأشره قريبا . وقد كان عصرى محيى الدين بن عربى ، وضرب له فى عالم التصوف ، فلسفة وسلوكا . راجع طبقات المفسرين للسيوطى ص ٧٦ .
(٨) نظم الدرر للبقاعى ٢٥٥/٤ مخطوط .

ونحن اذا ما نظرنا في استخدام القرآن الكريم للفعل (حسب)
والفعل (ظن) ألفينا الفعل (حسب) يأتي في سياق يدل على ان ما وقع
انما هو خطأ أو ضلال ، أو سياق ذم ، أو نهى عن قبيح أو انكار وتوبيخ
من ذلك قوله تعالى :

« أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون »
(العنكبوت : ٢) ، « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما ياتكم مثل الذين
خلوا من قبلكم » (البقرة : ٢١٤) ، « فلما رأته حسبته لجة » (النمل : ٤٤)
« ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون » (ابراهيم : ٤٢) ، « وترى
الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب » (النمل : ٨٨) ، « ايحسب
الانسان ان يترك سدى » (القيامة : ٣٦) ، « يحسبه الظمان ماء »
(النور : ٣٩) ٠٠٠٠ الخ الآيات

كل ذلك يكثف عن طبيعة هذا الفعل من انه ناجم عن ضعف عقله
العاقل .

اما الفعل « ظن » فان الاستخدام القرآني له يأتي به — في
المغلب — في سياق يدل على ان ما وقع حق وصواب ، أو هو قريب من
الصواب ، أو في قوته ، ولو باعتقاد فاعله . يقول تعالى :

« انى ظننت انى ملاق حسابيه » (الحاقة : ٢٠) ، « الذين يظنون
انهم ملائكة ربهم وانهم انهم راجعون » (البقرة : ٤٦) ، « وقال للذين
ظن انه ناج منهما » (يوسف : ٤٢) ، « وظن داود انما امتناه » (ص : ٢٤)
« ان ظنا ان يقيما حدود الله » (البقرة : ٢٣٠) « وظنوا انهم قد
احيط بهم » ٠٠٠ الخ الآيات المباركات . وفي هذا توثيق لما ذكره
« انبعاثي » من فرق بين الفعلين ، ولعل فيما ذكر الراغب الاصفهاني
من قبل الحرالي تبيانا لجانب آخر من المقارنة بينهما :

يقول : « والحسبان أن يحكم لأحد النقيضين من غير أن يخطر الآخر بباله ، فيحسبه ويعقد عليه الأصعب ، ويكون بعرض أن يعتريه فيه شك ، ويقارب ذلك الظن ، لكن الظن أن يخطر النقيضين بباله ، فيغلب أحدهما على الآخر » (٩)

وهذا الفرق يجلى ما يتلبس به الحسبان من بعد عن الحقيقة وذلك ما يتناسق مع السياق الذي تنساب آية الاحزاب على لاجبه فيكشف « البقاعى » عن بعض ملامح هذا التناسب والتناسق بقوله :

« كأنهم لما ذهب (أى الخوف) استمروا خاضعين ثم يطلقوا ألسنتهم ، ولا أعلوا كلمتهم فأخبر تعالى تحقيقاً لقوله الماضى فى جنبهم ان المانع الذى ذكره لم يزل من عندهم لفرط جنبهم (١٠) فقال تحقيقاً لذلك ، وجواباً ان قل : قد ذهب الخوف ، فمالهم ما سلموا « يحسبون » أى يظنون (١١) بضعف عقولهم اى فى هذا المجال ، وقد ذهب الخوف لشدة جنبهم ، وما رسخ عندهم من الخوف (الاحزاب) وقد علمتم انهم ذهبوا (نم يذهبوا) بل غابوا خداعاً ، وعبر بالحسبان لانه ، كما مضى عن الحرالى فى البقرة ما يقع ، فيما هو من نوع ما فطر الانسان عليه واستقر عادة له ، والظن فيما هو من العلوم المأخوذ بالدليل والعلم . فكان ضعف علم العالم ظن ، وضعف عقل العاقل حسبان » (١٢)

(٩) المفردات فى غريب القرآن للزاجب الاصفهاني ، مادة (حسب)

(١٠) يشير بذلك الى قوله تعالى قبل ذلك (اشحذ عليكم ، فاذا جاء

الخوف رأيتهم ينظرون اليك تمور أعينهم كالذى يغشى عليه من المات فاذا ذهب الخوف سلقوكم بالسنة حداد ، اشحذ على الخير اولئك لم يؤمنوا فأحبط الله اعمالهم وكان ذلك على الله بسيراً ، الأحزاب ١٩) .

(١١) تفسير البقاعى « يحسبون » يظنون لا يعنى انهما مترادفان

أو تماثلات دلالة ، ولذلك قال بعده « لضعف عقولهم » فبين بهذا التيد فرق ما بينهما .

(١٢) نظم الدرر للبقاعى ٢٥٥/٤ (مخطوط) .

وليس من شك في ان الضعف الذي يعترى العقل أشد سوءاً مما يعترى العلم ، ولا سيما ان الثانى يمكن زواله ، فكان ما فجر ضعف عقل العاقل أشد وانكى ، وفي هذا تبيان لمبلغ ما سيطر على المنافقين من خوف ، حتى انه افسد عقولهم واذلها بل اذهبها •

ولا يخفى على بصير فرق ما بين خوف يترتب عليه ضعف عقل العاقل وخوف يترتب عليه ضعف علم العالم • ان واقع الحياة ليؤكد ظهور اثر ادنى درجات الخوف على علم العالم حين يعتريه لكنه لن يضعف عقل العاقل الا ما كان من الخوف عظيما •

وهكذا يتجلى عظيم تناسب التعبير بقوله يحسبون دون يظنون ، وفاعلية ذلك في تبيان عظيم ما هيمن عليهم من خوف ووجل • جعل أعينهم تدور ، وعقولهم لا تعى ، وليس أشد على المرء مما هو مذهب منه جوهر انسانيته •

يتوقف « البقاعى » ايضا عند تعبير القرآن الكريم عن قري قوم « لوط » عليه السلام بالمؤتفكات في قوله تعالى :

« ألم يأتيهم نبأ الذين من قبلهم ، قوم نوح ، وعاد وثمود وقوم ابراهيم واصحاب مدين ، والمؤتفكات أنتتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » (التوبة : ٧٠) •

المثابرة في التدبر تكشف عن انتناسب المانع بين التعبير بالمؤتفكات وطبيعة فعل قوم « لوط » عليه السلام الذى كان ذلك القلب جزاء وفاقا والتناسب البديع بين ذلك وطبيعة المنافقين الذين كان سياق الآبة للحديث عنهم ، ذلك ان الآيات من أول قواه تعالى : « لو كان عرضا

قريباً وسفراً قاصداً لا تتبعوك ٠٠٠ » (الآية : ٤٢ - التوبة) الى آخر
السورة للحديث عن المنافقين وذلك ما فعل الشيخ ٠ يقول - رحمه
الله تعالى :

« عبر عنهم بالمؤتفكات ، لأن القصص للمنافقين الذين مبنى
أمرهم على الكذب ، وصرف الأمور عن ظواهرها ، فالمعنى أن اولئك
لما قلبوا فعل النكاح عن وجهه عوقبوا بقلب مدائنهم ، فهؤلاء جديرون
بمثل هذه العقوبة ، لقلب القلب عن وجهه ، ومادة « أفك » بكل ترتيب
تدور على القلب » (١٣)

أبصر الشيخ أواخر القسري بين الموروث الدلالي لكلمة
« المؤتفكات » وطبيعة السياق الخاص والعام الذي توالت الآيات على
لاحبه ٠ استطاع الشيخ ان يبرز اقتدار لفظ ذي موروث دلالي وعطاء
تشكيلي (١٤) على ان يرسم صورة شاخصة لأعيان تصور لك هذه القرى
المقلبة رأساً على عقب ، جزاء على صنيع هو من جنس قلب الحقائق
والوظائف في عالم الخلق ، وتصور في الوقت ذاته حقيقة من يتحدث
السياق العام عنهم (المنافقين) واصير الذي يتلف عليهم ، ويتهاك
على الوقوع بهم جزاء ما قلبوا وظائف قلوبهم ٠

إذا كان ما مضى وقفة عند تناسب الجزاء الدنيوي لفعلة نكراء
صورته كلمة في سياق خاص وعلم بموروثها الدلالي ، فان للبقاع وقفة

(١٣) السابق ٢/٣٣٣ ٠

(١٤) يشير الى الاتيان بهذا اللفظ جمع مؤنث سالم الموحى بالضعف
واللهوان حقيقة ومكانة ٠ ذلك أن جمع السلامة يفيد القلة والتأنيث يفيد
الضعف ٠

أخرى عند تناسب الجزاء الأخرى لفعلية يحسب جهالة أنها من خصائص العظماء في هذه العبراء ، وذلك في قوله تعالى :

« ويل لكل همزة لمزة ، الذي جمع مالا وعدده • يحسب أن ماله أخذه • كلا لينبذن في الحطمة » (المهمزة : ١ - ٤)

يقول الشيخ : « لينبذن : أي ليطرحن بعد موته طرح ما هو خفيف هين جدا على كل طارح ، كما دل عليه التعبير بالنبذ ، وبالبناء للمفعول » في الحطمة « أي الطبقة من النار من شأنها أن تحطم أي تكسر بشدة وعنف كل ما طرح فيها ، فيكون أخسر الخاسرين ، وعبر بها في مقابلة الاعتداد بالمال الحامل على الاستهانة بالخلق » (١٥)

يشير « البقاعى » الى ما في انبذ من دلالة على الهوان والكرهية وهى دلالة أصيلة في هذا الفعل ورثها من الجذر الاشتقاقى ، وقد وردت مادة هذا الفعل بأشتاقات متعددة تنتى عشرة مرة دل في كل مرة على هذا المعنى (١٦) فاذا أضفت الى الموروث الدلالى عطاء التأكيد

(١٥) نظم الدرر البقاعى ٦/٢٦٣ « مخطوط » •

(١٦) جميع الآيات التى وردت فيها مادة (ن • ب • ذ) دلالتها على معنى الطرح واللقاء هو انا بادية لا تخفى ، ما خلا قوله تعالى : « واما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء » وقوله تعالى : « فحملته فانتبنت به مكانا قصيا » غير أن الراغب الاصفهاني يحل هذا المعنى فى الآيتين فيقول : « وقوله : فانبذ اليهم على سواء » فمعناه ألق اليهم السلم ، واستعمال النبذ فى ذلك كاستعمال الالتقاء ، كقوله : « فألقوا اليهم القول انكم لكاذبون وألقوا الى الله يومئذ السلم » تنبيها أن لا يؤكد العقد معهم بل حقهم أن يطرح ذلك اليهم طرحا مستحشا به على سبيل المجاملة ولن يراعيهم حسب مراعاتهم له ، ويعاهدهم على قدر ما عاهدوه •

وانتبذ فلان : اعتزل اعتزالا من لا يقل مبالاة بنفسه فيما بين الناس قال : (فحملته فانتبنت به مكانا قصيا) •

انفرادات أى غريب القرآن للراغب الاصفهاني : مادة (نبذ) •

(لينبذن) ثم عطاء البناء للمفعول ادركت عظيم التناسب بين هذا الجزاء
والفعل المجازى بسببه ، كما جلاه الشيخ •

اما التعبير بالحطمة فهو ذو دلالة بالغة على التكسير والتهشيم في
قوة وعنف ، وتك ايضا دلالة موروثه من الجذر الاشتقاقي •

وقد وردت هذه المادة (ح • ط • م) في القرآن الكريم في ست
آيات كان ذلك المعنى بارزا فيها جميعا (١٧) ، وهو هنا يصور الجزاء
الوفاق لمن اعتد بلدنيا وعتادها ، حيث لم يكتف بجمع المال بل عدده ،
واعتد به مخلدا فهمز ولز • فكان التحطيم لهذا العناد والتهشيم والطرح
والالقاء البغيض •

ويمكن لنا ان نلاحظ مع هذا التناسب الدلالي بين الفعل وجزائه
تناسبا صوتيا بين (همزة - لمزة - حطمة) وفي ذلك اشارة الى ان
الانسجام الصوتي عنصر فعال في البيان القرآني كما سبق تبيانه
في التمهيد : (فصل : العلاقة بين اللفظ والمعنى) •

المهم ان « البقاعى » قد أدرك قدرة الالفاظ بموروثها الدلالي على
تصوير الواقع بما تلقيه في قلب المتلقى ، فيستحضر عقله وقلبه تلك
الحركة المنبثقة من شديد الكراهية ، المستقرة في اعماق التحطيم ، ولو
أنك قلت في غير القرآن الكريم (ليطرحن أو ليلقين) في الحطمة أو في
النار أو السعير لنا بقواك هذا سياقه ولتنافرت منه عناصر التركيب ،
ولتفجر القبح انهارا •

لقد ادرك « البقاعى » ان هذا الاسم للنار لم يرد في غير هذه

(١٧) كان ذلك في سورة (النمل : ١٨ ، والزمر : ٢١ ، والواقعة :

٦٥ والحديد : ٢٠ ، والهمزة : ٤ ، ٥) •

السورة وينقل عن ابي الحسن الحرالى انه « لمعنى ما يختص بالحكم يسمى - تعالى - النار باسم من اسمائها من نحو جهنم فيما يكون مواجهة ومن نحو الحطمة فيما يكون جزاء القوة والقهر والاستعداد بعدد ونحو ذلك من سائر اسمائها » (١٨)

وذلك الادراك جزء عظيم من فقه المعرفة البيانية لاعجاز النظم القرآنى وعظيم تناسبه ، وقد كان للبقاعى منهجه فى استجلاء اسرار الاسماء ولاسيما اسماء سور القرآن الكريم .



من هذا القبيل ما نراه فى تدبره اسماء الله الحسنى فى البيان القرآنى تدبرا يستجلى بعض دقائق ورفائق هذا البيان ، وذلك كما فى قوله تعالى :

« واذ قلت يا موسى لن تؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الساعة ، وأنتم تنظرون » (البقرة : ٥٥)

ذكر بنو اسرائيل اسم الجلالة فى مقام طلب الرؤية جهارا ، بينما حقائق الدلالة للكلمات الثلاث (نرى - الله - جهرة) لا تتلاقى أبدا ، يوضح البقاعى ذلك فيقول :

« واذ قلت يا موسى فدعوتموه باسمه جفاء وغلظة ، كما يدعو بعضكم بعضا ، ولم تخصصوه بما يدل على تعظيمه ، لما رأيتم من اكرام الله - تعالى - له ، واکرامكم على يده » لن تؤمن بك حتى نرى » من الرؤية ، وهى : الاطلاع على باطن الشئ الذى أظهر منه نبصره ، الذى أظهر منه ننظره ، ومنه يقال فى مطلع المنام رؤيا

(١٨) نظم الدرر للبقاعى ٢٦٣/٦ (مخطوط) .

لأن ذوات المرء في المنام من الامثال الباطنة في صورة المنظور اليه في
اليقظة . انتهى . « الله » . . . « جهرة » عيانا من غير خفاء ، ولا نوع
اللبس .

قال « الحرالي » : من الجهر ، وهو الاعلان بالشيء الى حد الشهرة ،
وبلاغة لمن لا يقصده ، في مقابلة السر المختص بمن يقصده به وهذا
المطلوب لا يليق بالجهر ، نتحقق اختصاصه بمن يكشف له الجوانب ،
من خاصة من يجوز منه القربة ، من خاصة من يقبل عليه النداء ، من
خاصة من لا يقع عنه الاعراض ، فكيف يطلب ذلك جهرا ، حتى يناله
من هو في محل البعد والطرده ، وفيه شهادة بتبلادهم عن موقع الرؤية
فان موسى عليه السلام قال : « رب ارني انظر اليك » وقال تعالى :
« وجوه يومئذ ناضرة ، الى ربها ناظرة » وقال — عليه الصلاة والسلام :
« انكم ترون ربكم » ، فالاسم المذكور لمعنى الرؤية انما هو « الرب »
لما في اسم « الله » تعالى من الغيب الذي لا يذكر لأجله الا مع ما هو
فوت ، لا مع ما هو في المعنى نيل ، ذلك أن أسرار العلم بمواقع معاني
الاسماء الحسنى في ما يناسبها من ضروب انخطاب والأحوال والأفعال ،
من أشرف العلم الذي يفهم به خطاب القرآن ، حتى يضاف الى
كل اسم ما هو اعلق بمعناه ، وأولى به ، وان كانت الأسماء كلها ترجع
معاني بعضها لبعض » (١٩)

يعتمد البقاعى — تبعا للفقيه أبى الحسن الحرالى — في تدبره
عظيم التنافر بين عناصر مطلوب بنى اسرائيل، على استكناه دلالة الفعل
(رأى) واسم الجلالة ، ولفظ « جهرة » .

انه يفرق بين « نظر » و « أبصر » و « رأى » الفعل نظر هو ادراك لظواهر الاشياء بالعين دون نفوذ الى شىء من بواطنها ، وذلك ما يتلاءم مع اقتدار اداة هذا الفعل (العين) .

والفعل « أبصر » ادراك لظواهر الاشياء بالبصر والبصيرة والنفوذ منها الى شىء من بواطنها ، وذلك ما يتلاءم مع اقتدار البصر والبصيرة .

والفعل « رأى » ادراك لبواطن الاشياء دون انشغال بشىء من ظواهرها ، بالقلب والروح ، وذلك ما يتلاءم مع اقتدارهما (٢٠) .

بناء على هذه المفارقات ينبغي أن يكون تناسب بين طبيعة كل فعل وحقيقة ما يتناوله ذلك الفعل أو يقع عليه ، فاذا نظرنا الى اسم الجلالة (الله) واسمه (رب) أدركنا شيئاً من عطاءاتهما :

اسم انجلالة علم على الذات الالهية التى هى قمة الغيب وذروته، حتى ان الهادى البشير — صلى الله عليه وسلم — حذر من مجرد التفكير فى ذات الله — تعالى — ولذا قال « نور أنى أراه » نفى رؤية ذات الله وحقيقته واستبعد ذلك تماماً .

فالقول بوقوع ادراك حقيقة الذات الالهية دون انشغال بشىء من آثار أفعاله ومظاهرها الحسية ، أو مجرد امكان ذلك انما هو ضرب من الغفلة « عن الحقيقة » التى يكشف بعض جوانبها التدبر البيانى لدلالة الفعل (رأى) ودلالة اسم الجلالة .

(٢٠) لعل ذلك ما يلحظه علماء العربية حين يذكرون « رأى » البصرية والعلمية ، والتفريق بينهما .

أما اسم « الربوبية » فإنه يدل على مظاهر التجلي بالآلاء والنعماء والتربية والأحسان ، وتلك مظاهر محسوسة يمكن ادراك ظواهرها وعلى ذلك يكون تناسب بين الفعل « نظر » واسمه « رب » وهذا ما جاءت به آيات الله والحكمة ، فان التتبع والاستقصاء لما في القرآن الكريم يؤكد لنا انه لم نأت آية تقرر ايقاع الرؤية على اسم الجلالة .

• وما جاء انما هو الربوبية « الى ربها ناظرة » .

ومثله في صحيح الحكمة المحمدية « انكم ترون ربكم » ولم يقل : « ترون الله » .

ومن ثم نفقه دلالات وخصائص ومستتبعات التركيب المعجز في قول الحق عز وعلا « قال رب أرني أنظر اليك » .

فالكليم موسى — عليه الصلاة والسلام — دعا ربه ، حاذفا حرف النداء وضمير المتكلم المضاف اليه «رب» طابا اقداره على رؤية الأشياء «أرني» وأنفعل هنا على الرغم من انه متعد الى مفعولين في حقيقته، الا أنه هنا — فيما أذهب اليه — منزل منزلة المتعدى الى واحد ، ولا يستقيم تقدير مفعول ثان ، كما فعل بعض المفسرين فقالوا : « أرني ذاتك » (٢١) .

بل المعنى : امنحنى الاقتدار على النفوذ الى بواطن الأشياء من العالمين لاستطيع بهذا الاقتدار العظيم النظر — مجرد النظر — اليك متجليا بربوبيتك لى .

(٢١) ينظر في هذا نظم الدرر للبقاعي ٢١٣/٢ ، البيضاوى وعليه حاشية الشهاب الخفاجي ٢١٣/٤ (طبعة بولاق سنة ١٢٨٣ هـ) والبحر المحيط لأبي حيان ٣٨٢/٤ (مطبعة السعادة سنة ١٣٢٩ هـ) وتفسير أبي السعود ٢٦٩/٣ (دار احياء التراث العربى / بيروت) .

ان ذلك ما نفقحه من البيان القرآنى لطب الكليم موسى - عليه الصلاة والسلام - ، يكشف لنا عوار ما ذهب اليه بنو اسرائيل جهارا فلم يكتفوا بمجرد الرؤية لذاته تعالى بل طبوا ان تكون عيانا من غير خفاء ، ولا نوع لبس • - تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا ، ومن ثم كان الجزاء « فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون » وتأمل التعبير بالفاء والفعل «أخذ» ، والصاعقة • وتذكر قوله « وخر موسى صعقا » وقوله « تنظرون » أى تنظرون الصاعقة وهى تهوى لتأخذكم أخذ عزيز مقتدر •

ان كنت قد بسطت القول هنا ، فلأنى بصدد الحديث عن أمر كثر القول فيه واشتجر بين أهل العلم ، ولم يكن للبيانين فيه قول ، على الرغم من أنهم أهل القرآن نشأة وتطورا • ذلك هو ما يسمى برؤية الله ، عند علماء الكلام ، وفى يقينى أن الدرس البيانى عليه اليوم أن ينصدى بمنهجه الجمائى التحليلى ، المرتبط بالسياق الخاص والعام ، النافذ فى أغوار الدلالات ، المدقق فى مسارب سياستها البيانية المنطقية ، المبصر تتفاعل الازام بالعقل والالزام بالشعور ، النازل على متنضى السياق والأحوال المتكاثرة ، عليه أن ينصدى منتترسا بذلك كله للبيان الالهى المعجز نبيما يسمى بآيات الأحكام والعقيدة فى القرآن الكريم ، ويفسرها ، ويحللها ويقول للناس كلمته مثلما قال الفقهاء والمتكلمون كلمتهم فى تفسيرها ، ويوم أن يفعل الدرس البيانى ذلك ، فانه يقدم للمسلمين خيرا وفيرا ، هو أسمى وأسنى من الجدل العقيم حول مباحكات لفظية هى شاهد افلاس علمى •

وننتقل الى ضرب آخر من وقفات « البقاعى » المتدبرة تناسب الموروث الدلالى للكلمات مع السياق والقصد. هو مجال التعبير عن ذات واحدة باسمين فيجعل كل اسم فى سياق وقصد لا يتلاءم التعبير بالاسم الآخر معه ، وذلك مثل ما فى قوله تعالى : « فانطلقا حتى اذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها ، فأبوا أن يضيفوهما » [الكهف ٧٧]

وقوله تعالى : « وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين فى المدينة » [الكهف : ٨٢]

عبر القرآن الكريم بالقرية أولا وبالمدينة ثانيا مع أن المتحدث عنه بقعة واحدة ، ولا يشغلنا « البقاعى » بتحقيق اسم هذه البقعة وإنما يلقى بصيرته الى السياق والقصد من كل آية كما يتراءى له ، والى دلالة كل من لفظ (قرية) و (مدينة) فأدرك تناسب كل تناسباً معجزاً .

يقول الشيخ : « كان التعبير بالقرية أولا أليق ، لأنها مشتقة من معنى الجمع ، فكان أليق بالذم فى ترك الضيافة ، للاشعار ببخلهم حال الاجتماع »

وكانت المدينة بمعنى الإقامة ، فكان التعبير (ثانيا) أليق ، للإشارة به الى أن الناس يقيمون فيها ، فيهدم الجدار ، وهم مقيمون ، فيأخذون الكنز » (٢٢)

أبان الشيخ أن كلمة (القرية) تدور مادتها على معنى الجمع ،

(٢٢) نظم الدرر للبقاعى ٢٩٦/٣ (مخطوط رقم ٢١٣ تفسير دار الكتب

الشرعية) .

وذلك ما تدل عليه تقلباتها الصوتية (٢٣) والآية التي وردت فيها [الكهف ٧٧] ترمى الى بيان بخل أهل هذه البقعة ، وكم يكون البخل شنيعا حين يجمع عليه القادرون على العطاء لمحتاج غريب يستجدي ، فالاجتماع المصور ذلك المعنى يستحضره لفظ (القرية) بكل ما يملكه من امكانات دلالية ورثها من بناء وتشكيل اصول مادته .

أضف الى ذلك أن هذا التعبير يبرز المفارقة بين ما كان من أهل هذه البقعة ، وما الشأن أن يكون عليه امثالهم من أبناء القرى كرماء وسخاء ، جبلة وطبعا .

أما كلمة (المدينة) فيدور معناها على الاقامة ، كما تدل عليه تقلباتها الصوتية (٢٤) والآية التي وردت فيها [الكهف : ٨٢] ترمى الى بيان كيف أن العبد الصالح لو لم يقم الجدار الذي اعترض كليم الله « موسى » على اقامته ، لترتب عليه ضياع حق يتيمين تركهما ابواهما في كنف الله ورعايته ، فالاقامة بجوار الجدار أدعى الى تداعيه ، وأدعى في الوقت نفسه الى نهب الكنز حين يبرز ، فذلك شأن أهل المدينة ، فهم أقرب الى البغى والعدوان .

الذي أبرز ذلك كله التعبير هنا بلفظ المدينة الحامل لهذه الدلالة من جذره الاشتقاقي .

وعليه فانه لن يستقيم - بلاغة - وضع احدي الكلمتين موضع الأخرى .

★ ★ ★

(٢٣) ينظر القاموس المحيط مادة : (قرر ، قرى ، زوق ، ريق ، رفو ، رقى) .

(٢٤) السابق : مادة : (دمن ، ملن ، نم) .

ووقفة اخرى في قصة سيدنا « آدم » واللعين « ابليس » ترينا القرآن الكريم في سورة « البقرة » يعبر بلفظ « ابليس » عند الحديث عن الامتناع عن السجود : « فسجدوا الا ابليس ابي » [البقرة : ٣٤] وكذلك في (الاعراف : ١١) ، (الحجر : ٣١) ، (الأسراء : ٦١) ، (طه : ١١٦) .

ويعبر بلفظ « الشيطان » عند حادث اغواء « آدم » و « حواء » عليهما السلام ، يقول الحق عز و علا : « فأزلهما الشيطان عنها » [البقرة : ٣٦] وكذلك في (الاعراف : ٢٠) ، (طه : ١٢٠)

على الرغم من أنهما اسمان لذات واحدة ملعونة ، الا انه لم يضع احدهما في سياق آخر ، ذلك أن لكل منهما من موروثه الدلالي ما يتناسب مع ما أورده القرآن الكريم فيه ، « فابليس مشتق من الابل اس وهو انقطاع سبب الرجاء الذي يكون منه اليأس من حيث قطع ذلك السبب . . . » (٢٥) وهذا عنده اما على القول بان كلمة « ابليس » عربية ، أو انه اسم اعجمي مشتق من غيره ويشترك منه (٢٦) .

أما لفظ « الشيطان » عنده ، فهو « مأخوذ من أصلين : الشطن (البعد) والشيط (الاحترق) والاسراع فيه فهو من المعنيين مشتق ، كلفظ « انسان » و « ملائكة » (٢٧) .

يريد الشيخ ان لفظ « شيطان » كالمناحوت من أصلين ، فاجتمع فيه معناهما ، بل هو يصرح بذلك النحت في مقام آخر ، فيقول :

• (٢٥) نظم الدرر المبتغى ٤٣/١ (مخطوط) .

• (٢٦) ينظر : الخصائص لابن جني ٣٥٧/١ .

• (٢٧) نظم الدرر للذقاعى ٤٨/١ .

« ليكن اسم « ملائكة » جامعا للمعنيين : « الألك » و « الملك » منحوتا من أصلين ، فكثيرا ما يوجد ذلك في أسماء الذوات الجامعة ، كلفظ « انسان » بما ظهر فيه من أنه من « الأنس » و « النسيان » معا ، وهو وضع للكلم على مقصد أفصح وأعلى مما يخص به اللفظ معنى واحدا ، فللكلام رتبتان : رتبة عامة ، ورتبة خاصة ، أفصح وأعلى كلما وكلاما « (٢٨) » .

يعتمد « البقاعى » هنا على « النحت » ، لأنه السبيل الذى يجمع بين دلالات الأصول فى لفظ واحد ، فلفظ « شيطان » له من « الشطن » معنى ، ومن « الشيط » معنى ، فيلتقى المعنيان فيه التقاء جدليا لا ينقض ، بخلاف أخذه من معنى واحد وذلك معلم من معالم الشيخ « البقاعى » فى تدبره آيات الله — تعالى — وسوف نرى فى المبحث الثالث شيئا من جمعه بين الدلالات والاتجاهات المختلفة بحيث يستخرج من جمعها وتفاعلها نهجا جديدا مفيدا .

هذا النهج يبرز ايمان « البقاعى » بثناء البيان القرآنى ، وانه جمال ذو وجوه ، كما يقال ، فلا يكفى فى اسهامه وجه واحد من وجوه التدبر ، ولا يغنى سبيل واحد من سبل الفهم .

نرى ذلك جليا فى تدبره استخدام القرآن الكريم لفظ « ابليس » فى سياق الحديث عن عدم سجوده ، ولفظ « الشيطان » فى سياق الحديث عن معصية « آدم » عليه السلام . يقول الشيخ :

« ذكر الحق — تعالى — الازلال منه باسم الشيطان لا باسمه ، لما فى معنى الشيطنة من البعد والسرعة التى تقبل التلافى ، ولما فى معنى

الابلاس من قطع الرجاء ، فكان ذلك بشرى استتدراك « آدم »
بالتوبة « (٢٩) »

يريد الشيخ ان في استخدام لفظ « الشيطان » مع معصية « آدم »
اشارة الى أن أثره يتلاشى في سرعة ويبتعد ويخبو ، فيفهم أهل القرآن
من ذرية « آدم » أن كل محاولة للشيطان مع الانسان ان توبت بالتوبة
النصوح يزول أثرها ويحترق •

أما استخدام لفظ « ابليس » مع معصية عدم السجود التي هي
في حقيقتها رد الأمر على الأمر — عز وعلا — المفهم وصف « ابليس » للحق
جل جلاله بعدم استحقاق الألوهية ، وذلك الذي لا يغفر ابداً ، فالسيان
يستشرف الى ذلك الاستخدام ويأنس به ويهش له ، لانه سياق قطع
الرجاء من الغفران لهذا الذي كان منه • وهو ما يوحى به ويدل عليه لفظ
« ابليس » بما يحمله من معنى الابلاس وقطع الرجاء •

ولو أنه استخدم لفظ « ابليس » في سياق زلة « آدم » عليه
السلام ، وهي وليدة نسيان ، كما قال الحق عز وعلا ، (ولقد عهدنا
الى آدم من قبل فنسى ، ولم نجد له عزماً) [طه: ١٥] ثم ادرك هذا
النسيان وأثره بالتوبة « قالوا ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا
وترحمنا لنكونن من الخاسرين » [الاعراف : ٢٣] ، لو انه استخدم
لفظ « ابليس » هنا لقتل ذلك في قلوب بني آدم كل أمل لمن زل قدمه
في العودة الى الله • وهو ما يتتافر مع ما تقرره آيات الله والحكمة •

« البقاعى » كما بدا لك كان ذا بصر بتناسب وتفاعل عناصر
البيان القرآنى مع السياق والقصد الذى يرمى اليه •

(٢٩) نظم الدرر للبقاعى ٤٨/١ • مخطوط •
(٥ - انتاسب)

ويمكن لك أن تقول تماما على الذي احسن من فبك : «البقاعي»
عليه الرضوان : ان كلمة « ابليس » فيها معنى التحير ثم اليأس (٣٠)
فيعطى استخدامها في ذلك السياق اشارة الى انه في اول امره عندما امر
بالسجود كن حائرا بين قياسات عقله ، وموازناته بين الطين والنار .
وبين نداءات قلبه بالتسليم المطلق للامر الالهي • عاش أولا في حيرة من
امره ، ثم تهاوى الى صوت العقل وقياساته فجهر بكلمته الشنعاء
« أأسجد لمن خلقت طينا » [الاسراء : ٦١] • « أنا خير منه » [الاعراف :
١٢] لكن الملائكة خضعت لصوت التسليم لمرادات الحق ، فسجدوا
كهم اجمعون ، فترتب على ما انتهى اليه ابليس بعد حيرة بلغة أن
صرد من رحمة الله فكان اليأس وكان القنوط ، وكان من آثار هذا اليأس
الاحترق ينضب الحق عز و علا ولعنته ، وعظيم ابتعاده الازلي عن
رضوان الله تعالى وذلك ما كان باديا عليه من بعد رفض السجود ، فهو
ابان اغواء آدم كان منتبها بخصائص التشيطان التي ورثها عنه من كان
من ذريته علي منهجه ، وكذلك من كان من ذرية « آدم » عليه السلام ،
ومن ثم اطلق عليهما لفظ الشيطان « وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين
الانس والجن » [الانعام : ١١٢]

★ ★ ★

موقفه من تفاوت البيان القرآني
ونحنم تدبرانتنا في هذا الفصل بتبيان موقف « البقاعي » من
تفاوت البلاغة القرآنية وذلك من خلال تنظير آرائه وتدبراته ببعضها
وذلك في مثل تأمله قول الحق عز و علا بجملة قيسته من حائرا بلغة

(٣٠) ينظر لسان العرب والقاموس المحيط مادة (ابليس) (١٧٠)

« وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والارض
اعدت للمتقين » [آل عمران] •

وقوله تعالى : « سابقوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض
السماء والارض اعدت للذين امنوا بالله ورسوله ذلك فضل الله يؤتيه من
يشاء والله ذو الفضل العظيم » [الحديد : ٢١]

ايه سورة « آل عمران » جاءت في معرض الحديث عن جهاد
بالأموال والآنفس والانعناق من حظوظ النفس ، وعقيب احديث عن
غزوة « بدر » : ذروة التجرد عن ملاحظة النفس ، وحظوظ النفس
فناسب ذلك الاستغراق في الفناء عن الاغيار التعبير بالمسارعة الدال
على شدة التلهف وعظيم الجهة بغية الادراك ، وناسبه أن كانت الى
مغفرة وجنة عرضها السموات والأرض ، وليس عرضها كعرض السماء
والأرض ، وهذا يصور جنة المسارعين تصويرا يسمو على قدرات كاف
التشبيه التي جاءت في جنة سورة « الحديد » ومن ثم كانت الجنة
التي تحدثت عنها سورة « الاصطفاء » والتوحيد ، سورة « آل عمران »
للمتقين المشارفين على القدوم على مقام الاحسان •

اما آية سورة « الحديد » فقد جاءت في معرض الحديث عن
التصدق والاقراض •

وفرق جد شاسع بين الجهاد بالأموال والآنفس والانعناق من
حظوظ النفس الذي له آية « آل عمران » وبين التصديق والاقراض
الذي له آية « الحديد » ، وكفى التعبير بالاقراض اشارة الى لحظ
حظوظ النفس فيما تخرجه ، ومن ثم كان التعبير في سورة « الحديد »
بالمسابقة التي لا تصل الى مستوى المسارعة دائما • ولهذا كانت المسابقة
الى مغفرة وجنة عرضها كعرض السماء والارض ، فهي جنة دون التي

في آية آل عمران ومن ثم كان الافراد في « السماء » والتصريح بدادة التشبيه وذلك لانها جنة الذين آمنوا .

وفي هذا يقول البقاعي : « سابقوا » اي افعلوا في السعى لها بالاعمال الصالحة حق السعى فعل من يسابق شخصا هو يجتهد غاية الاجتهاد في سبقه ولكن ربما كان قرينه بطيئا ، فسارعوا الهويينا والمسارة لا تكون الا بجهد النفس من الجانبين مع السرعة في الصرف .

فآية « آل عمران » الأمرة بالمسارة الأخص من المسابقة ابلغ لانها للحث على التجرد عن النفس والمال وجميع الحظوظ أصلا ورأسا، ولذلك كانت جنة للمتقين المرموقين واما هذه ففي سياق التصديق الذي هو تجرد عن فضول الأموال ولذلك كانت جنة للذين آمنوا « الى مغفرة من ربكم » فلما كان السياق ، كما بين للتجرد عن فضول الأموال فقط كان الموعود له دون ما في « آل عمران » فأفرده ، وصرح بالعرض ، فقال « كعرض السماء والأرض » أي لو وصل بعضها ببعض ، فآية « آل عمران » تحتل الطول ، وجميع السموات والأرض ، وهذه الآية ظاهرها عرض سماء واحدة وأرض واحدة « (٣١)

نقف عند قوله : (فآية « آل عمران » الأمرة بالمسارة الأخص من المسابقة أبلغ ٠٠٠) فقوله (أبلغ) اما ان يكون مشتقا من المبالغة أو البلوغ أو البلاغة (٣٢) وما يترتب على أحدهما يغاير ما يترتب على الآخر ، كما

(٣١) نظم الدرر للبقاعي ج ٥ ق ٣٣٦ - ٣٣٧ « مخطوئى- » .

(٣٢) ان قيل انه مشتق من (بالغ : مبالغة) ففيه أن (أنعل

التفضيل) لا يشتق من الرباعى ، ليتمكن بناء (افعل) منه ، والرباعى متعذر

سياتى بيانه ، وحتى نكون على وعى بالغ بحقيقة موقف البقاعى من هذه القضية نضيف الى هذا نصوصا اخرى لديه فى القضية :
يقول الشيخ فى تدبره قول الحق عز و علا : « قالوا ربنا من قدم لنا هذا فزده عذابا ضعفا فى النار » [ص : ٦١]

مقارنا لها بقوله تعالى : « ربنا هؤلاء اضلونا فاتهم عذابا ضعفا من النار » [الاعراف : ٣٨]

« عذابا ضعفا : أى زائدا على مثله مرة أخرى بالاضلال ، وقيديوا طلبا لفخامته بقوله معبرين بالظرف لافهم الضيق الذى تقدم الدعاء العجاب منه (٣٣) ليكون عذابا آخر فهو أبلغ مما فى « الاعراف » ، لان السياق هنا للطاغين ، وهناك لمطلق الكافرين « (٣٤) » .
ونص ثالث يقارن فيه بين أول سورة « الجمعة » ، وأول سورة « التغابن » يقول فى أول سورة « التغابن » :

« له أى وحده (الملك) أى كله مطلقا فى الدنيا والآخرة ، وهو السيادة العامة للمخاص والعام والسياسة العامة ، بركنيها دفع الشرور وجلب الخير الجالبة للسرور والحبور من الابداع والاعدام ، فهو أبلغ مما فى « الجمعة » ، فان المنك قد يكون ملكا فى الصورة ، وذلك الملك

فيه ذلك ولا يتأتى الا باسقاط بعض الحروف فيلزم الالتباس ، غير أن الأخفش والمبرد اجازا صوع الفعل التفضيل من الرباعى ، ورد عليهما ذلك مما هو شهير فى علم النحو : ينظر شرح ابن يعيش مفصل ج ٦ ص ٩٢-٩٣ وشرح الرضى للكافية ج ٢ ص ٢١٤ ، وحاشية المسروقى على المختصر ٢٧٥/٤ ، تقرير الانبأبى على المختصر ٣٤٣/٤ .

(٣٣) يقصد قول الحق عز و علا « لا مرحبا بهم » الآية : ٦٩ .

(٣٤) نظم الدرر المبقاعى ج ٥ ق ٢٣ (مخطوط) . (٩٦)

هو لغاة ، فدوام التسبيح الذى اقتضته عظمة الملك هنا أعظم من ذلك
الدوام» (٣٥)

نصوص ثلاثة يعطى ظاهرها القول بتفاوت البيان القرآنى مبالغة
أو بلوغاً أو بلاغة •

ان قلنا انه يقول بتفاوته بلاغة بمعناها الاصطلاحى الشهير
فان ذلك يقوض النظرية التى يقيم عليها تدبره البيان القرآنى : نظرية
التناسب القرآنى • لان روح هذا التناسب هو بلوغ كل عنصر درجة
الكمال فى البلاغة من كل جهاته ومطابقتها لكل مقتضيات الأحوال التى
نعلمها والتى استأثر الله بعلمها اعجازاً خالداً ، وذلك يتنافر معه القول
بتفاوت البيان أنقرآنى بلاغة •

وان قلنا ان الرد بالبلاغة هنا انبلاغة اللغوية ، وهى الحسن (٣٦)
فذلك موضع نظر مثله ان قلنا انه من البلوغ أو المبالغة •

الذى نبصره فى موقف البقاعى من خلال تعبيره أنه يذهب الى ان
ما فى « آل عمران » فى سياقه أبلغ (أكثر حسناً أو وصولاً أو مبالغة)
من التعبير بما فى « الحديد » فى سياق آل عمران ، وكذلك ما فى سورة
« ص » فى سياقه أبلغ من التعبير بما فى « الاعراف » فى سياق « ص »
بدليل قوله (لان السياق هنا للطاغين وهناك لمطلق الكافرين) وكذلك
ما فى « التغابن » فى سياقه أبلغ من التعبير بما فى « الجمعة » فى سياق
« التغابن » •

فالتفاوت عنده ليس تفاوت صيغة ومطابقة لمقتضيات الأحوال
وانما هو تفاوت فى السياق ، فسياق الحديث عن المتقين اعلى من سياق

(٣٥) السابق ج ٦ ق ٨٥ - ٨٦ •

(٣٦) حاشية المسوقى على المختصر ج ٤ ص ٢٧٥ •

الحديث عن الذين آمنوا ، لبعدهما بين الطائفتين وكذلك الامر بين
الطاغين ومطلق الكافرين وايضا سياق « التعابن » للحديث عن التفرد
بالمك والحمد والقدرة المطلقة والعلم الشامل « فدوام التسبيح الذي
اقتضته عظمة الملك هنا أعظم من ذلك الدوام » في سورة « الجمعة » ،
حيث السياق لم يكن للتفرد بالمك والحمد والقدرة والعلم ، وانما لتفتره
والعزة والحكمة والتفضل بالآلاء .

فالتفاوت عنده تفاوت سياق لا تفاوت صياغة ومطابقة ومن ثم
نجد في سورة « الزمر » عند قوله تعالى :

يقول : « متشابها » أى في البلاغة المعجزة والموعظة الحسنه
لا تفاوت فيه أصلا في لفظ ولا معنى ، مع كونه نزل مفترقا في نيف
وعشرين سنة ، وأما كلام الناس فلا بد فيه من التفاوت وان طال الزمان
في التهذيب « (٣٧)

قوله هذا قاطع : في انه لا يقول بالتفاوت في الصياغة والمطابقة
لمقتضى الأحوال مما يؤكد صحة ما ذهبت اليه في فهم موقفه من خلال
النصوص الثلاثة الآتية ، وعلى الرغم من ذلك فان القول بالتفاوت بأى
وجه : مطابقة ، وحسنا ، ومبالغة ووصولا ، غير سديد ، وان كان
بعض هذه الوجوه لا يخفى فالقول بأحدها يستتبع القول بالآخر .

وكذلك القول بالتفاوت من حيث السياق غير سديد عندي ، ذلك
أن الموازنة بين سياقات مختلفة أمر يرفضه الفكر المستقيم ، وينبئ
عن أصول الموازنة الدقيقة ، لأن الحديث عن « الذين اتقوا » ليس أبلغ
أبدا من الحديث عن « الذين آمنوا » متى اقتضى مقصود السورة

الحديث عما جاء فيها ، فالقول بالتفاوت من حيث السياق أشبه بالقول بأن سورة « المسد » من حيث ان المقابلة بين ذكر الله عز وجل ، وبين ذكر ابي لهب عليه اللعنة من جهة ، وبين التوحيد وبين الدعاء على الكافرين من جهة أخرى . وذلك بلا ريب غير مستقيم في عقل وان جهد في تلمس وجه لاستقامته .

ولهذا كان الامام شمس الدين الخويي (٣٨) أقرب الى انصواب حين قال : « ينبغي أن يقال : «تبت يدا أبي لهب» دعاء عليه بالخسران، فهل توجد عبارة للدعاء عليه بالخسران أحسن من هذه ؟ وكذلك في « قل هو الله أحد » لا توجد عبارة تدل على الوحدانية أبلغ منها ، فالعالم اذا نظر الى « تبت يدا أبي لهب » في باب الدعاء بالخسران ، ونظر الى « قل هو الله أحد » في باب التوحيد لا يمكنه أن يقول أحدهما أبلغ من الآخر ، وهذا القيد يغفل عنه بعض من لا يكون عنده علم البيان » (٣٩) .

وتماما على الذي أحسن أقول على الرغم مما قاله الامام الخويي، فاني أذهب الى أنه لا يستقيم أن يفهم ان « قل هو الله أحد » أبلغ من كل آيات التوحيد في القرآن الكريم ، فلو أننا وضعنا هذه السورة بكاملها موضع أي آية تتحدث عن التوحيد في أي سورة أخرى لما

(٣٨) هو الامام أحمد بن خليل بن سعادة الخويي (ت ٦٣٧ هـ) عالم في الحكمة والطب والنحو والأصول والكلام ، تتلمذ على فخر الدين الرازي ، له عدة مؤلفات منها ينابيع الحكمة وشرح الارشاد في الجدل . (ينظر : معجم المؤلفين لرضا عمر كحالة ج ١ ص ٢١٦) طبعة الترقى سنة ١٩٥٧ م - دمشق .

(٣٩) البرهان في علوم القرآن للزركشي ج ١ ص ٤٣٩ تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ط / ثانية ، بيروت .

استقام ذلك ، لأن موضع الآية والسورة جزء من مقومات بلاغتها ، فسورة الاخلاص مثلا استقرت على عرشها في هذا الوطن بين « المسد » و « الفلق » ولو حولت عن مكانها لنزلت من بلاغتها ، ومثل ذلك في كل آية وسورة ، فكل عنصر في سياقه وملايساته المتكاثرة المعجزة في ادراكها كلها مثلما هي معجزة في مطابقتها مستقر على عرشه ، ولكل كلمة عرشها الذي لا تتازع فيه .

فلا تفاوت عندنا بين عناصر البيان القرآني لا من حيث المطابقة أو المبالغة أو التحسن أو الوصول ، فأى وجه من وجوه التفاوت بين عناصر البيان القرآني من حيث هو بيان لا يستقيم . ذلك ما يطمئن اليه القلب ايمانا والعقل تفكيراً .

أما ما ورد في الحكمة النبوية من أحاديث صحيحة يثبت تفضيل بعض آيات القرآن الكريم وسوره كآية الكرسي وسورة الاخلاص والكافرون ... الخ فالأفضلية هنا ليست من حيث بيانها الذي نحن مهمومون به ، وانما هو من حيث انثواب وتنزلات الأسرار وسبحات الأنوار . تيسيراً على هذه الأمة ، فيكون لها عميم الثواب من قليل العمل فجعل سورة الصمد تعدل ثلث القرآن الكريم حتى لا يحرم الذين لم يكرموا بحفظ الذكر الحكيم أو بحسن تلاوته من عظيم الفضل . ومن ثم لا تتساوى عطاءات تلاوة القرآن الكريم كله من عالم مع عطاءات تلاوته سورة « الصمد » ثلاث مرات ، مع ملاحظة رحابة المراد يقولنا « عطاءات » فهي أكبر من انثواب والمعاني والأنوار والأسرار ، فالقرآن الكريم مائدة الله وهي يتكاثر ما عليها من آلاء على قدر الجالس اليها فكل له على قدر مقامه وفيوضاتها أشبهه بفيوضات الجنة لأهلها ، ذل على قدره ، فلا يستدل بتفاضل الآيات والسور ثواباً لاثبات تفاضلها بيانا فالأمر جد مختلف .

كل ذلك نقوله تعقيبا على موقف « البقاعى » والأمر من قبل ومن
موطن تجاذب بين أهل العلم ولا سيما البيانيون (٤٠) ولعلى أعد
دراسة مستوعبة لمقولاتهم عرضا وتحليلا وتقويما . (انتهى) .

★ ★ ★

موقفه من قضية الترادف فى البيان القرآنى

إيمان الیقاعى بأعجاز التناسب بين الكلمة من حيث مادتها مع
السياق واقصد فى البيان القرآنى يؤكد أنه لا يقول بالترادف فى بيان
الذكر الحكيم ، فكل كلمة فيه لها خصائصها وامكاناتها وعطاءاتها على
لاحب السياق الذى ترد فيه ، والمنزل الذى تنتهى إليه ، ولن يستطيع
سواها أن يعطيه فى ذلك السياق والمنزل نفسيهما ، وان تلاقت هذه
الكلمة مع تلك فى بعض وجوه الدلالة . مثلما لا تعطىها الكلمة الأولى
نفسها فى سياق ومنزل آخرين .

ان ذلك هو عنصر من عناصر حقيقة التناسب القرآنى ، ولن
يستقيم معها القول بالترادف .

ذلك ما انتهى بنا إليه التطواف والتنقيب والتأمل فى تفسير
الیقاعى « نظم الدرر » ، والقضية من قبله ومن بعده تشغل جمهرة

(٤٠) لقيت هذه القضية لديهم جدلا كثيرا ولا سيما عند قول الخطيب
فى التلخيص (ولها طرفان أعلى ، وهو حد الاعجاز وما يقرب منه) ينظر فى
هذا المطول للسعد (ص ٣٠ - ٣١) وعروس الافراح (١٣٨/١) ومواهب
الفتاح (١٣٧/١ - ١٤١) ، وحاشية الدسوقي على المختصر (١٣٨/١ -
١٤١) والاطول للمصام (١٣٥/١) وتجريد البيانى على المختصر
(٣٢٤/١ - ٣٢٦) وتقرير الانبأى على المختصر والتجريد (٣٢٤/١ - ٣٢٦)
وحاشية عبد الحكيم على المطول (ص ١٤٠ - ١٤٢) ورسالة (اعجاز
القرآن) لابن كمال باشا (ق ٢١٩ - ٢٢١) مخطوط رقم ٣٨٩ مجاميع
بمدر الكتب المصرية .

من العلماء في شتى العصور ، وقد تباينت مواقفهم بين الرفض المطلق،
والتأييد المطلق أيضا والتوقف . وقد تابعت الكثير من هذه
المواقف (٤١) .

فألفت الأمر في حاجة جد بالغة الى تفصيل القول تحليلاً وتقويماً
وذلك ليس غاية هذه الدراسة من جهة ولا يتسع له هذا المقام من جهة
أخرى ، فكان لزاما الاكتفاء هنا بابداء موقف صاحبنا «البقاعي» وارجاء
دراسة مواقف العلماء قديماً وحديثاً الى بحث مستقل آمل أن أقيمه
نهذه القضية عسى أن نوفق الى جلاء الحقيقة ودفع كل ما يحوم حولها
من شبهات آخذة بخناق مقولات بعض أهل العلم .

★ ★ ★

(٤١) من ذلك ما قاله ابن فارس في الصحاح ص ١١٤ - ١١٧ ،
والرمانى فى رسالة الألفاظ المترادفة .
وأبو هلال العسكري فى الفروق اللغوية (ط / الرابعة سنة ١٤٠٠ هـ
بيروت) والسيوطى فى التزهر ج ١ ص ٢٣٨ (ط / صبيح) ودلالات
الألفاظ لابراهيم انيس ص ٢٢١ وفى اللهجات العربية له أيضا ص / ١٧٨ ،
ودور الكلمة فى اللغة لاستيفن اولمان وتعليق المترجم الدكتور كمال بشر
ص ٩٧ ، وفته اللغة للدكتور تلى وافى ص ٢٦٨ ، الاعجاز البيانى للقرآن
لعائشة عبد الرحمن ص ١٩٤ وفصول فى فقه العربية لرمضان عبد التواب
ص ٣٠٩ .

الفصل الثاني

تناسب الكلمة مع السياق والقصد من حيث هيئتها

لا ريب في أن للعربية من حيث هي النصيب الأوفى في الصياغات المتعددة للكلمات ، وكل صياغة ذات عطاءات متنوعة عنى علماء العربية بإبراز بعضها . وأكثر ما يكون الفيض حين تنتزل هذه الكلمات في البيان القرآنى فإنه مفجر منها ومغدق عليها ما لا يتتاهى من سبحاته وسرائره الآخذة بألباب صفوة أهل العلم والقرب ، ودونك نزير من ذلك الكوثر :

★ ★ ★

المضارع : ملامح وعطاءات تناسبه

أهم خصائص الفعل عامة احتواؤه عنى حدث وزمان مقيد لنسبة الحدث « ودخول الزمان الذى من شأنه التغير فى مفهوم الفعل يؤذن ويشعر باعتبار التجديد فى الحدث (١) ، وهذا التجديد يطلق على معنيين :

الأول : الحصول بعد ان لم يكن ، وهو المعتبر فى مفهوم الفعل .

(١) تقرير الانبأبى على المخصر والتجريد ج ٢ ص ٣٣٧ ، ٣٤٢ .

الآخر : التقضى والحصول شيئاً فشيئاً على وجه الاستمرار، وهو لازم للزمان وليس بلازم للفعل ، ولا يعتبر في مفهومه حتى اذا أريد من المضارع لا بد له من قرينة (٢) .

فالدلالة على التجدد من حيث هو معتبر في مفهوم كل فعل ولا سيما المضارع اما الدلالة على التجدد الاستمراري فان يكن لازماً للزمان الذي هو جزء مفهوم الفعل عامة والمضارع خاصة فليس بلازم للفعل بحيث يفيد كل فعل تجدد استمرارياً ، دلالة المضارع عليه تكون بمعرفة الأحوال والملابسات والقرائن وليست دلالة ذاتية . ومن ثم قد يأتي المضارع ولا يفيد ذلك التجدد الاستمراري وذلك حين لا يكون قرائن وملابسات وأحوال معينة على ذلك وسوف نرى موقف البقاعى من خلال تدبره البيان القرآنى من هذا الفكر التنظيرى لدى علماء العربية .

★ ★ ★

عند تدبره قول الحق عز وعلا : « أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون . أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون . أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون» .
الأعراف : ٩٧ - ٩٩

يقول : « أفأمن أهل القرى » أى كذبوا ناسين أفعالنا المرهبة بالمضار ، والمرغبة بالمسار ، فأمنوا (٣) « أن بأسنا » أى الناشئ عما

(٢) مواهب الفتاح لليقوبى ج ٢ / ٢٧ ، حاشية الدسوقي على
المختصر ج ٢ / ٢٧ .

(٣) يشير بذلك الى أنه معطوف على مقدر ، وان الاستفهام فى
أفأمن (داخل على ذلك المقدر ، وذلك مسلك البيانين فى مثل هذا .

لنا من العظمة التي لا ينساها الا خاسر «بيات» أى ليلا ، وهم قد أخذوا الراحة في بيوتهم ، ولما كان النوم شيئا واحدا يغمر الحواس ، فيقتضى الاستمرار عبر بالاسم الدال على الثبات فقال «وهم نائمون» أى على غاية الغفلة عنه ، ولم كان ربما قال جاهل لو جاء وهم أيقاظ لا يمكن ان يدافعوا قال « أو أمن أهل القرى » أى مجتمعين أو منفردين ، فانه لا فرق عندنا في ذلك « أن يأتيهم بأسنا ضحى » في وقت راحتهم (٤) واجتماع قواهم ونشاطهم ، ولما كت اليقظة موجبة للحركة عبر بالمضارع في قوله « وهم يلعبون » أى يتجدد لعبهم شيئا فشيئا في ذلك الوقت ، وفيه تقريع لهم بنسبتهم أنهم صبيان العقول لا التفات لهم الى غير اللعب « (٥) »

يشير «البقاعى» الى تناسب المضارع «يلعبون» مع طبيعة الحدث «اللعب» المعتمد على الحركة المتجددة وعلى التنوع ، وتناسبه أيضا مع زمان اتيان البأس «الضحى» فهو وقت حركة ونشاط واجتماع قوى وذلك يتناسب معه المضارع لاقتداره على الدلالة على التجدد والحدوث والتقصى شيئا فشيئا ، كما يقول الامام عبد القاهر (٦) بمعونة قرائن الأحوال ، فضلا عن عطائه تقريبا لهم وتبياننا لحقارتهم بأنهم قوم يلعبون في وقت ليس من شأن عاقل أن يلعب فيه ، اذ لا يلعب في الضحى الا صغير أو سفيه ، وكأنه أراد أنهم يلعبون في ضحى أعمارهم ، وهو وقت تحصيل كسبهم في أخراهم فهم صبيان العقول ، وان كانوا شيوخ الأعمار .

(٤) لا يريد براحتهم سكونهم واسم تقراؤهم وانما يريد انهم غير منهكى القوى .
 (٥) نظم الدرر البقاعى - ٢ ق ١٩٦ «مخطوط» .
 (٦) دلائل الاعجاز ص ٢٢٣ - تصحيح المراغى - الطبعة الثانية .

كذلك يمكن أن نلاحظ التناسب العالى بين عطاء استخدام كلمة «الضحى» وما فيه من تقريع سبق بيانه وعطاء الاستفهام في «أفأمنوا» فان فيه من التقريع والتبكييت ما لا يخفى على ذى حس بيانى، والبقاعى لم يشر الى ذلك •

أما صياغة انحدث «النوم» فالذى يتناسب مع طبيعته هو الاسم، فهذا الحدث انما هو شىء واحد يغمر الحواس فيقتضى الاستقرار والثبوت الذى عو أبرز دلالات الاسم ، أضف له أن استخدام اسم الفاعل «نائمون» هنا يتناسب بجلاء مع التعبير عن زمان اتيان البأس «بياتا» دون «ليلا» ، لأن «ليلا» لا يفهم منه حتم الاستقرار لكل أحد ، فكم من قوم لاقرار لهم في ليلهم ، فلا يكون التعبير به معطيا دقة المقابنة الدالة على شمول الهيمنة الالهية ولكن «بياتا» يعطى دلالة على أنهم مثلبسون بالبيتوتة أى الراحة والسكون والدعة ، وقد أشار البقاعى لذلك بدقة بالغة ، وهو يفسر قوله «بياتا» •

هكذا يستطيع «البقاعى» أن يلمح وأن يبين التناسب العالى والمعجز فيما بين عناصر البين القرآنى ، وكيف ان اختيار هذه العناصر وتشكيلها واختيار منازلها انما يكون وفقا لطبيعة الحدث والزمان والسياق ، والرجوع الى موقف بعض سابقيه ولاحقيه من الآية (٧) يبين أكثر وأكثر مما امتاز به «البقاعى» من مزيد رهافة حس ، ودقة بصر وتبيين •

(٧) راجع ما قاله الزمخشري في الكشاف ج ٢ ص ٩٨ والبضاوى في انوار التنزيل ج ٤ ص ١٩٦ ، وأبو السعود في تفسيره ج ٣ ص ٢٥٤ .
والطاهر بن عاشور في التحرير والتنوير ج ٩ ص ٢٢ •

ونقف عند تدبره تنزل الفعل المضارع ومن قبله اسم فاعل ، ومن بعده اسم فاعل آخر ، وذلك في قول الحق عز و علا :

« ان الله فالق الحب والنوى ، يخرج الحى من الميت ، ومخرج الميت من الحى ، ذلكم الله ، فأنى تؤفكون » [الأنعام : ٩٥]

فنجده يشير الى أن معنى فالق الحب والنوى ، فاطره وشاقه عن الزرع والنبات ، وعبر بذلك ، لأن الشىء قبل وجوده كان معدوما والعقل يتوهم ويتخيل من العدم ظلمة متصلة ، فاذا أخرج من العدم المحض ، والفناء الصرف ، فكأنه بحسب التخيل وانتوهم شق ذلك العدم « (٨) »

ففلق الحب والنوى انما هو ضرب من الاحياء اى اخراج حى من ميت ، لأن فى النبات نموا ، ومن هنا « فسر [الحق عز و علا] معنى الفلق ، وبينه ، اشارة الى الاعتناء به وقتا بعد وقت . بقوله : « يخرج » على سبيل التجديد والاستمرار ، تنبيها لأمر البعث « الحى من الميت » (٨)

المضارع فى « يخرج الحى ٠٠٠ » يكشف عن حقيقة قوله « قالق » وهذا الكشف لا يقتدر عليه اسم الفاعل نو عبر به ، وفى الوقت نفسه نجد المضارع فى « يخرج الحى ٠٠٠ » متناسبا مع السياق الخاص للآية وهو البعث ، كما لا يخفى ، ومع السياق العام والمقصود الأعظم لسورة « الأنعام » وهو الايجاد الأول وانحمد عليه ، كما سيأتى تبينه فى « المبحث الرابع » ان شاء الله تعالى ، وفى الوقت نفسه يتناسب المضارع فى « يخرج الحى ٠٠٠ » مع طبيعة حركة ، وتجدد وتنوع ٠٠